العلامه محمد شكر

عميد آل شاكر الأعلام

ترجمة المؤلِّف(*)

. . . . . .

(*) من مصادر ترجمته: «معجم المطبوعات العربية والمعربة» ليوسُف سركيس: ٢/ ١٦٦٤ (حرف الميم)؛ «الكنز الثمين لعظماء المصريين» لفرج سليمان فؤاد: ١/ ١٦٤؛ «كلمة عن والدي الأستاذ الأكبر الشيخ محمد شاكر» لابنه المحدّث الجليل أحمد (في نشرته لجامع الترمذي: ١/ ٩٢)؛ «محمد شاكر» له أيضًا: مقال بمجلة «المقتطف» (٩٥/ ٣٠٠، وأساسها الترجمة الأولى مع بعض الزيادات المهمة، وطبعها لاحقًا في كتيِّب صدر عن دار المعارف- القاهرة: ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م، وأعاد طبعها مع بعض الزيادات ابنه أسامة جاعلًا إيَّاها الفصل الأول من كتابه «من أعلام العصر» الذي خصَّصه لترجمة جدِّه المترجم، ووالده أحمد، وعمِّه محمود: ٩- ٢٤)؛ «مجلة الرسالة»: ٧/ ١٣٢٨ (العدد: ٣١٣)؛ «الأعلام» للزركلي: ٦/ ١٥٦ (حرف الميم)؛ «الأعلام الشرقية» لزكي مجاهد: ١/ ٣٨٢- ٣٨٥ (٤٨٢)؛ «المعجم الأصغر» لأبي الوفا المراغي: الورقة (٢٨١)؛ «أعلام من الشرق والغرب» لمحمد عبد الغني حسن: ١١٣؛ «الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة» لمحمد كامل الفقي: ٢/ ١٨٢؛ «معجم المؤلِّفين» لعمر كحالة: ٣/ ٣٣٩- ٣٤٠ (١٣٥٨٥)؛ «الأزهر في ألف عام» لمحمد عبد المُنعم خفاجي: ٢/ ٤٢؛ «نثر الجواهر والدرر» للمرعشلي: ٢/ ١٢١٨ (حرف الميم، وقد نقلها المؤلف بفصها ونصها من زكي مجاهد)؛ «هيئة كبار العلماء» لزوات عرفان المغربي: ٤٤٨؛ «جمهرة أعلام الأزهر الشريف» لأسامة الأزهري: ٤/ ٢٢٧.

اسمه:

هو محمد شاكر بن أحمد بن عبد القادر: الحُسيني نسبًا، الجَرجاويُّ[١] مَولدًا ومنشأً، القاهريُّ تعليمًا وإقامةً ووفاةً، الحنفيُّ مذهبًا، الخلوتيُّ تصوُّفًا ومسلكًا.

مولده، ونشأته:

وُلِد يوم السَّبت منتصف شهر شوال (١٢٨٢هـ)/ ٣ مارس (١٨٦٦م).

نشأته:

نشأ بجرجا، ثم التحق بأحد كتاتيبها، فحفظ القرآن، وتلقَّى مبادئَ القراءة والكتابة، والعلومَ الأوَّليَّة، ثم رحل إلى القاهرة في (١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م) فتعلَّم بالأزهر، وظلَّ فيه بضع عشرة سنة يتلقَّى عن كبار شيوخه.

شيوخه:

تلقَّى الشَّيخ محمد شاكر العلم عن جمهرة جليلة من أهله،

---

(١) نسبة إلى جرجا، إحدى مراكز محافظة سوهاج حاليًا، وهي من المدن الكبرى فيها؛ في الماضي شهرة، وفي الحاضر سكانًا. يُنظر عنها: «معجم البلدان» لياقوت الحموي: ٢/ ٤٨؛ «الخطط التوفيقية» لعلي مبارك: ١٠/ ٥٣؛ «القاموس الجغرافي للبلاد المصرية» لمحمد رمزي: ٥/ ١١٣.

ومن جملة شيوخه الذين تلقَّى عنهم بالجامع الأزهر الشَّريف:

أ- العلَّامة الكبير محمد المهدي العباسي (ت. ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م) شيخ الأزهر، ومفتي الدِّيار المصريَّة.

ب- العلَّامة الكبير الشَّيخ حسن الطَّويل (ت. ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م).

ج- الأستاذ الإمام محمد عبده (ت. ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م) مفتي الدِّيار المصريَّة.

د- العلَّامة الكبير الشَّيخ أحمد أبو خطوة (ت. ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م).

وكان متفوِّقًا على أقرانه، ويُدرِّس لزملائه ما يصعب عليهم فهمه.

مجالسه العلميَّة:

تنوَّعت مجالس الشَّيخ محمد شاكر، وكان من هذه المجالس: مجلسٌ يوميٌّ لتعليم أولاده، فكان يقرأ لهم في التَّفسير: «**معالم التَّنزيل**» للبغَوي (ت. ٥١٦هـ)، و«**مدارك التَّنزيل وحقائق التَّأويل**» للنَّسَفي (ت. ٧١٠هـ)، وفي الحديث: «**صحيح مسلم**»، و«**الجامع**»، و«**الشَّمائل**» للتِّرمذي (ت. ٢٧٩هـ)، و«**السُّنن**» للنَّسائي (ت. ٣٠٣هـ)، وشيئًا من «**صحيح البخاريِّ**»، وفي الفقه: «**الهداية**» للمَرغيناني الحنفيِّ (ت. ٥٩٣هـ)، وفي

الأصول: «**جمع الجوامع**» للسُّبكيِّ (ت. ٧٧١هـ)، و«**شرح المنهاج**» للأسنويِّ (ت. ٧٧٢هـ)، وفي المنطق: «**شرح الرِّسالة الشَّمسيَّة**» للقطب الرَّازي (ت. ٧١٠هـ)، و«**شرح تهذيب المنطق**» للخبيصي (ت. نحو ١٠٥٠هـ)، وفي البيان: «**الرِّسالة البيانيَّة**» للصَّبَّان (ت. ١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢م)، وغير ذلك من الرَّسائل الصَّغيرة في العلوم المختلفة.

ومنها: مجالسه بالسُّودان في تعليم النَّاس أمور دينهم، ووعظهم، وكان من ثمرتها أنَّه قرأ لهم «**صحيح البخاريِّ**» بتمامه.

ويبدو أنه كان له مجلس خاصٌّ بمنزله في القاهرة يؤمُّه كبار العلماء من الغرب وغيرهم، فقد حكت الكاتبة عايدة الشَّريف (ت. ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م)[1] أن المستشرق الإيطاليَّ الأستاذ نللينو Nallino (ت. ١٩٣٨م) ذهب إلى مجلس العلَّامة محمد شاكر لمحاولة إقناع ابنه محمود شاكر بالعودة إلى كليَّة الآداب على إثر خلافه مع الأستاذ الأديب طه حسين (ت. ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م)، وكان من شهود هذه الجلسة عشرون ضيفًا، منهم المورِّخ المعروف الشَّيخ عبد الوهَّاب النَّجَّار (ت. ١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م).

(١) في كتابها «محمود محمد شاكر: قصة قلم»: ٣٧- ٣٨.

وظائفه:

وكان أوَّل ما عُيِّن فيه من الوظائف الشَّرعيَّة بالحكومة المصريَّة في يوم الثُّلاثاء الثَّالث عشر من شهر رجب (١٣٠٧هـ) الموافق للرابع من شهر مارس (١٨٩٠م) وظيفة كاتبٍ للإفتاء (أمين فتوى) في عهد الشَّيخ محمد المهدي العباسي مفتي الدِّيار المصريَّة، فكان ينوب عنه في مناقشة أحكام المحاكم الشَّرعيَّة، ويلاحظ على قضاتها ملاحظات دقيقة.

ثم انتقل منها في يوم الثُّلاثاء السَّابع من شهر شعبان (١٣١١هـ) الموافق الثَّالث عشر من شهر فبراير (١٨٩٤م) إلى المحكمة الشَّرعيَّة بمديرية القليوبيَّة، فعُيِّن نائبًا لها.

مكث بهذا المنصب أكثر من ستِّ سنوات اطَّلع خلالها على وجوه النَّقض في الأحكام، وما يتطلَّب العلاج منها، فوضع تقريرًا قَيِّمًا أَوْحَت به غيرته، وأملَتْه خبرته، ورفعه إلى الشَّيخ محمد عبده -مفتي الدِّيار المصريَّة آنذاك- فرأى أن رأيه في الإصلاح يتوافق مع رأيه.

وفي يوم الأحد العاشر من شهر ذي القعدة (١٣١٧هـ) الموافق الحادي عشر من شهر مارس (١٩٠٠م) عُيِّن -بتزكية من الشَّيخ محمد عبده- قاضيًا لقضاة السُّودان، عقب الثَّورة

المهديَّة، وهو أكبر منصب علميٍّ ودينيٍّ هناك، وهو أوَّل مصريٍّ تُسنَد إليه هذه الوظيفة، وكان عمره حينها أربعًا وثلاثين سنة، ويعدُّ الشَّيخ شاكر أوَّلَ مَن وضع نظم القضاء الشَّرعيِّ في السُّودان على أوثق الأسس وأقواها.

وفي يوم السَّبت السَّادس عشر من شهر المحرَّم (١٣٢٢هـ) الموافق الثَّاني من شهر أبريل (١٩٠٤م) تمَّ وضع مشروع إصلاح المعاهد الدِّينيَّة، وتنظيم معهد الإسكندرية على النَّسَق الحديث، فاختير شيخًا لعلماء مدينة الإسكندرية، فبعث فيها نهضة علميَّة، ووضع نظامًا مُحكمًا للتعليم، وأحسن اختيار المقرَّرات التَّعليميَّة.

واختار كوكبة مِن جلَّة العلماء لمعاونته، وهم: عبد المجيد الشاذلي (ت. بعد ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م)، وعبد اللَّه دراز (ت. ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م)، والد العلَّامة المعروف محمد (ت. ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م)، وعبد الهادي مخلوف (ت. ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م)، وإبراهيم الجبالي (ت. ١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م).

وفي أواخر (١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦- ١٩٠٧م) نُدِب للقيام بأعباء مشيخة الجامع الأزهر، نيابة عن الشَّيخ عبد الرحمن الشربيني (ت. ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م) بجوار عمله شيخًا لعلماء الإسكندرية، وظلَّ على ذلك أربعة أشهر.

وفي يوم الأربعاء الرَّابع عشر من شهر ربيع الأوَّل (١٣٢٦هـ) الموافق الخامس عشر من شهر أبريل (١٩٠٨م) حصل على كسوة التَّشريف من الدَّرجة الأولى.

وفي يوم الاثنَين السَّابع من شهر ربيع الآخر (١٣٢٧هـ) الموافق التَّاسع والعشرين من شهر أبريل (١٩٠٩م) عُيِّن مديرًا للمعاهد العلميَّة، ووكيلًا لمشيخة الجامع الأزهر؛ فاستفتح ذلك برحلة واسعة إلى مدن الصَّعيد وقُراه تمهيدًا لإنشاء معاهد علميَّة تكون فروعًا للأزهر، وتحقَّقَ ذلك بإنشاء معهد أسيوط الدِّينيِّ.

وفي (١٣٢٩هـ/ ١٩١١م) صدر قانون الأزهر، وتمَّ تأسيس جماعة كبار العلماء، فعُيِّن عضوًا فيها إلى أن مات.

وفي (١٣٣١هـ/ ١٩١٣م) أنشئت الجمعيَّة التَّشريعيَّة بالقاهرة، فطَلَب من محمد سعيد ذو الفقار باشا (ت. ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م) ناظر النُّظَّار (رئيس الوزراء) أن يكون عضوًا مُعيَّنًا بها؛ ليتخلَّص بذلك من أغلال المناصب الحكوميَّة، وكان عمره آنذاك سبعًا وأربعين سنة، ولا يسمح بالتَّقدُّم للمعاش في هذه السِّنِّ، وكان من قانون الجمعيَّة التَّشريعيَّة أن الموظَّف إذا صار عضوًا في الجمعيَّة، خُيِّر بينها

وبين عمله الحكوميّ، فدخلها الشَّيخ عضوًا معيَّنًا من الحكومة المصريَّة، ومن ثَمَّ أُحيل إلى المعاش.

وفي (١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م) قامت الحركة الوطنيَّة الكبرى بزعامة سعد باشا زغلول (ت. ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م)، فكان المترجَم في طليعة مناصريه، وكان لهذا الموقف الوطنيّ الأثر الظاهر في تطوُّع علماء وطلبة الأزهر للمساهمة في اتِّساع نشاط الحركة الوطنيَّة، حتى قامت الثَّورة المصريَّة.

وكان في كلِّ وظائفه وأعماله من دعاة الإصلاح والتَّجديد والتَّطوير، وظلَّ بعد ذلك في جهاده العلميّ بإخلاص وصبر.

إصلاحه:

من إصلاحاته حين عُيِّن شيخًا لعلماء الإسكندرية: تلك النُّظم التي وضعها، والمقرَّرات التي انتخبها، والعلوم الحديثة التي ضَمَّها إلى العلوم الأساسيَّة، وكان أكثرها معروفًا في الأزهر، ويتدارسه أهله، لكنها كانت اختياريَّة، فجعلها الشَّيخ إجباريَّة.

ومنها: أنه عهد إلى تسعة نفر من العلماء في مراقبة الطُّلَّاب في مسجد الشيخ أبي العباس المُرسي (ت. ٦٨٦هـ) يفصلون في المنازعة، أو الإساءة العادية التي يكفي التَّأديب عليها والزَّجر، والنَّصيحة والموعظة الحسنة، ويرفعون الأمر فيما

يستحقُّ فاعله العقوبة إلى المشيخة، ويأمرون بالصَّلاة مع الجماعة، ويكونون مرجعًا للطُّلَّاب في تصحيح المتون التي يحفظونها، وحلِّ المشكلات التي تعرض لهم، وقد كان من عقوبة بعض فاسدي الأخلاق من الطُّلَّاب طردهم من معاهد العلم، وعهد إلى فريق من العلماء في زيارة الطُّلَّاب في مساكنهم يراقبون شئونهم في معيشتهم، ويسألون الجيران عن أحوالهم، ووعد بأنه سيُعنى بهذه المراقبة في القابل بأكثر مما عني بها في هذا العام.

قال السيِّد محمد رشيد رضا (ت. ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م)[1]: «وهذا مما يمتاز به التَّعليم في الإسكندرية على التَّعليم في الأزهر، فنثني على الشيخ محمد شاكر الثَّناء الحسن، ونرجو له زيادة التَّوفيق».

كما أنه سنَّ سُنَّةً حسنة أن يُعقدَ آخر كلِّ عام دراسيٍّ احتفالٌ رسميٌّ بالنَّاجحين من الطُّلَّاب في مسجد أبي العباس المرسي، على أن تُقدَّم لهم فيه الجوائز مِن الكتب العلميَّة النَّفيسة، مثل: «**ديوان الحماسة**»، و«**ديوان المتنبِّي**»، و«**فقه اللُّغة**» للثعالبي (ت. ٤٣٠هـ)، و«**مقدِّمة ابن خلدون**»، و«**المثل السَّائر**» للضياء

(١) في «المنار»: ٨/ ٩١٤.

ابن الأثير (ت. ٦٣٧هـ)، وغيرها، ويحضره الخديوي أو نائب عنه، ويحضره الوزراء، والعلماء في مسجد أبي العباس المرسي، ويخطب الشَّيخ محمد شاكر في الحاضرين.

وكان في جميع وظائفه مصلِحًا مجدِّدًا.

أبناؤه:

آل شاكر بيت من أكبر البيوتات العلميَّة بمصر، وأكثرِها نفعًا في العلوم الشَّرعيَّة والعربية، ومجالات الحياة، سَارَ العِلم فيهم جدًّا وابنًا وحفيدًا، ولا يزال عامرًا بالخيرات، وما أجمل قول أبي القاسم منصور بن محمد العلوي (ت. ٥٢٧هـ): «الإسناد بعضه عوالٍ وبعضه معالٍ، وقول الرَّجل: حدَّثَني أبي عن جَدِّي، من المعالي»[1].

ومن اللَّطيف أنها أسرة عِلم صاهرت أسرة عِلم؛ فقد تزوَّجَ الشَّيخ محمد شاكر بابنة عضو هيئة كبار العلماء وشيخ رواق الصعايدة هارون ابن عبد الرازق البَنجاوي (ت. ١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م) السَّيِّدة الفاضلة أسماء بنت هارون (ت. ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م)، وهي أخت العلَّامة محمد بن هارون (ت. ١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م) وكيل مشيخة الأزهر

(١) «علوم الحديث» لابن الصلاح: ٣١٦- ٣١٧.

بالإسكندرية، وقاضي قضاة السُّودان بعد العلَّامة محمد شاكر، وعمَّة العلَّامة المحقِّق عبد السَّلام (ت. ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م) الأمين العام الأسبق لمجمع اللُّغةِ العربيَّةِ.

وأنجبت له من الأولاد:

- أحمد بن محمد شاكر، أبو الأشبال (ت. ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م) المحدِّث، القاضي، عضو المحكمة العليا الشَّرعيَّة سابقًا.

- علي بن محمد شاكر (ت. ١٩٦١م).

- محمد بن محمد شاكر (ت. ١٩٧٤م).

- محمود بن محمد شاكر، أبو فهر (ت. ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م) الأديب، الشَّاعر، عضو مجمع اللُّغة العربيَّة سابقًا- إضافة إلى ثلاث بنات.

ويصدق عليهم قول مجلَّة الرسالة[1]: «ولقد نشأ أولاده نشأته؛ فما منهم إلا له مقام معلوم بين المجاهدين لمجد الإسلام والعرب».

مؤلَّفاته وتحقيقاته:

١- «**الإيضاح شرح إيساغوجي**» طُبع بمطبعة الملاجئ بمصر (١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م)، وبمطبعة النَّهضة بمصر (١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م).

(١) ٧/ ١٣٢٩ (العدد: ٣١٣).

بالإسكندرية، وقاضي قضاة السُّودان بعد العلَّامة محمد شاكر، وعمَّة العلَّامة المحقِّق عبد السَّلام (ت. ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م) الأمين العام الأسبق لمجمع اللُّغةِ العربيَّةِ.

وأنجبت له من الأولاد:

- أحمد بن محمد شاكر، أبو الأشبال (ت. ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م) المحدِّث، القاضي، عضو المحكمة العليا الشَّرعيَّة سابقًا.

- علي بن محمد شاكر (ت. ١٩٦١م).

- محمد بن محمد شاكر (ت. ١٩٧٤م).

- محمود بن محمد شاكر، أبو فهر (ت. ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م) الأديب، الشَّاعر، عضو مجمع اللُّغة العربيَّة سابقًا- إضافة إلى ثلاث بنات.

ويصدق عليهم قول مجلَّة الرسالة[1]: «ولقد نشأ أولاده نشأته؛ فما منهم إلا له مقام معلوم بين المجاهدين لمجد الإسلام والعرب».

مؤلَّفاته وتحقيقاته:

١- «**الإيضاح شرح إيساغوجي**» طُبع بمطبعة الملاجئ بمصر (١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م)، وبمطبعة النَّهضة بمصر (١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م).

(١) ٧/ ١٣٢٩ (العدد: ٣١٣).

٢- «**الدُّروس الأوَّليَّة في الأخلاق المرضيَّة**» وهو كتابنا هذا.

٣- «**الدُّروس الأوَّليَّة في السِّيرة النَّبويَّة**» طُبع ضمن مجموع بمطبعة مدرسة محمد علي الصناعية بمصر (١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م)، وبالمطبعة الجمالية بمصر (١٣٢٩هـ/ ١٩١١م).

٤- «**الدُّروس الأوَّليَّة في العقائد الدِّينيَّة**» طُبع بالمطبعة المصريَّة بالإسكندرية (١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م).

٥- «**بداية المجتهد ونهاية المقتصد**» لابن رشد الحفيد (ت. ٥٩٥هـ) طُبع بالمطبعة الجمالية بمصر (١٣٢٩هـ/ ١٩١١م).

٦- «**خلاصة الإملاء**» طُبع بمطبعة النهضة بمصر (١٣٣١هـ/ ١٩١٣م).

٧- «**من الحماية إلى السِّيادة: الكلمة الآن لمصر**» طُبع بمطبعة النهضة بمصر (١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م).

٨- «**القول الفصل في ترجمة القرآن الكريم**» طُبع ضمن مجموع بمطبعة النهضة بمصر (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م).

كما كتب مجموعة من المقالات في المناحي العلميَّة والشُّئون السِّياسيَّة في العديد من الصُّحف والمجلَّات.

ثناء العلماء عليه:

أ- وقالت «مجلة الرسالة» في نعيه[١]: «الإمام الجليل والعالم المحقِّق... كان ﷺ رجلًا من رجال الجيل، وعَلَمًا من أعلام الدِّين، وداعية بعيد الصَّوت، صريح القول، قويَّ البرهان».

ب- وقال عنه ابنه أبو الأشبال[٢]: «الإمام الجليل، والنابغة العظيم، والكاتب القدير، والشاعر المُلهَم، والسياسي الخطير، شيخ الشيوخ وزعيم العلماء، مجدِّد مجد الأزهر، العالم العلَّامة، السيِّد الشريف».

وقال أيضًا[٣]: «فقدت مصر -وفقد العالَم الإسلامي كله- عالمًا من كبار العلماء، ومجاهدًا من أعلام المجاهدين وقف حياته على خدمة الوطن، وخدمة الإسلام، وخدمة الشرق- في سبيل اللَّه».

ج- وقال زكي مجاهد (ت. ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)[٤]: «كان

---

(١) ٧/ ١٣٢٨ (العدد: ٣١٣).
(٢) في مقدمته لجامع الترمذي: ١/ ٩٢.
(٣) في مقاله عن والده المترجم بمجلة المقتطف: ٩٥/ ٣٠٠.
(٤) في «الأعلام الشرقية»: ١/ ٣٨٤-٣٨٥ نقلًا عن مقال «المقتطف» السابق: ٩٥/ ٣٠٦.

فقيهًا ضليعًا، متبحِّرًا في الفقه وأسراره، عالمًا بكتاب اللَّه، يفقهه ويعرفه، ويداوم مدارسته والغوص على أسراره، وكانت له في التَّفسير نظرات دقيقة، وكان في العلوم العقليَّة آية الآيات، وكان كريم الأخلاق، زاهدًا في الدنيا».

وخاتمة ما يجمع الثناءات عليه قول شيخ المحققين العلامة الكبير محمد محيي الدين عبد الحميد (ت. ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م) عن المؤلف: «العالم الكبير، والمصلح الجليل، قدوة المتأخرين، مولانا العلامة محمد شاكر . . . أحسب أنني إذا استرسلت في تعداد فضل الأستاذ حفظه اللَّه فسوف لا أقف عند حد، وقد يطول بنا القول طولا يغضب له فضيلته، فقد نعرفه أزهد الناس في المديح، وأحبهم لأن تتكلم عنه أعماله الجليلة، وتسكت عنه ألسنة الخلق أجمعين»[1].

وفاته:

عاش الشَّيخ محمد شاكر معتكِفًا في بيته بسبب مرض الفالج الذي أصابه في السَّنوات الثَّماني الأخيرة من حياته، حتى توفَّاه اللَّه في منتصف السَّاعة الثَّامنة من صباح يوم الخميس الحادي عشر من شهر جمادى الأولى سنة (١٣٥٨هـ)، الموافق التَّاسع والعشرين من شهر يونيو (١٩٣٩م).

(١) من مقدمته لكتاب: «الإيضاح لمتن إيساغوجي».

نصُّ الكتابِ

بِسمِ اللَّهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للَّهِ ربِّ العالَمِينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدِنا محمَّدٍ سيِّدِ الأنبياءِ والمُرسَلِينَ، وعلى آلِهِ وصَحبِه أجمعين.

وبعدُ، فهذه «**دُروسٌ أوَّليَّة في الأخلاقِ المَرضيَّة**»، وَضَعتُها لطلبةِ العلومِ الدِّينيَّةِ، وقد ضمَّنتُها مِنَ الأخلاقِ ما يحتاجُه طالبُ العِلمِ في بدايةِ أمرِه، حتى إذا وفَّقَه اللَّهُ للتَّخلُّقِ بها كان مَرجُوًّا أن يَنفَعَه اللَّهُ بعِلمِه، وأن يَنفَعَ به كثيرًا مِن خَلقِه، واللَّهُ وليُّ الرَّشادِ، والهادي إلى الصِّراطِ المُستقيمِ.

* * *

الدَّرسُ الأوَّلُ

نصيحةُ الأستاذِ لتلميذِه

يا بُنَيَّ! أَرشَدَك اللَّهُ، ووفَّقَك لصالحِ الأعمالِ، إنَّك منِّي بمنزلةِ الولدِ من أبيه، يسُرُّني أن أراكَ صحيحَ البِنْيَةِ، قويَّ الإدراكِ، زكيَّ القلبِ، مُهذَّبَ الأخلاقِ، مُحافِظًا على الآدابِ، بعيدًا عن الفُحشِ في القولِ، لطيفَ المُعاشَرةِ، محبوبًا من إخوانِك، تُواسي الفقراءَ، وتُشفِقُ على الضُّعَفاءِ، تَغفِرُ الزَّلَّاتِ، وتَعفُو عنِ السَّيِّئاتِ، لا تُفرِّطُ في صلاتِكَ، ولا تُهمِلُ في عبادةِ ربِّكَ.

يا بُنَيَّ! إن كنتَ تَقبَلُ نصيحةَ ناصحٍ؛ فأنا أحقُّ مَن تَقبَلُ نصيحتَه، أنا أُستاذُكَ ومُعلِّمُكَ ومُربِّي رُوحِكَ، لا تَجِدُ أحدًا أحرَصَ على مَنفعَتِكَ وصلاحِكَ منِّي.

يا بُنَيَّ! إنِّي لك ناصحٌ أمينٌ؛ فاقبَل ما أُلقِيهِ عليك مِنَ النَّصائحِ، واعمَل به في حُضوري، وبينَك وبين إخوانِك، وبينَك وبينَ نَفسِكَ.

يا بُنَيَّ! إذا لم تَعمَل بنصيحتي في خَلوَتِكَ؛ فقلَّما تُحافِظُ عليها بينَ إخوانِكَ.

يا بُنَيَّ! إذا لم تَتَّخِذني قُدوةً فَبِمَن تَقتدي؟! وعَلَامَ تُجهِدُ نفسَكَ في الجُلوسِ أمامي؟!

يا بُنَيَّ! إنَّ الأستاذَ لا يُحِبُّ مِن تلاميذِه إلَّا الصَّالحَ المُؤدَّبَ، فهل يَسُرُّكَ أن يكونَ أستاذُكَ ومُربِّيك غيرَ راضٍ عنك، ولا طامعٍ في صلاحِكَ؟

يا بُنَيَّ! إنِّي أُحبُّ لك الخيرَ، فساعِدني على إيصالِ الخيرِ إليك بالطَّاعةِ والامتثالِ لِما آمُرُكَ به مِن مكارمِ الأخلاقِ.

يا بُنَيَّ! الخُلُقُ الحَسَنُ زينةُ الإنسانِ في نفسِه، وبينَ إخوانِه وأهلِ عَشِيرتِه، فكُن حَسَنَ الخُلُقِ يَحترِمْكَ النَّاسُ ويُحبُّوكَ.

يا بُنَيَّ! إذا لم تُزيِّن عِلمَك بكرمِ أخلاقِك كان عِلمُك أَضَرَّ عليك مِن جَهلِكَ؛ فإنَّ الجاهلَ معذورٌ بجَهلِه، ولا عذرَ للعالِمِ عندَ النَّاسِ إذا لم يَتجمَّل بمَحاسِنِ الشِّيَمِ.

يا بُنَيَّ! لا تَعتمِد على مُراقبتي لك، فإنَّ مُراقبتَك لِنَفسِكَ أفضَلُ وأنفَعُ مِن مُراقبتي لك.

يا بُنَيَّ! قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«إنَّ اللَّهَ استَخلَصَ هذا الدِّينَ لنفسِه، ولا يَصلُحُ لِدِينِكُم إلَّا السَّخَاءُ وحُسنُ الخُلُقِ، أَلَا فَزَيِّنُوا دِينكم بِهِما»**[1].

---

(١) رواه الطبراني [في «المعجم الكبير»: ١٨/ ١٥٩ (٣٤٧)، وأبو نعيم =

الدَّرسُ الثَّاني

في الوصيَّةِ بتَقوى اللَّهِ العظيمِ

يا بُنَيَّ! إنَّ ربَّك يَعلَمُ ما تُكِنُّه في صَدرِكَ، وما تُعلِنُه بِلِسانِك، ومُطَّلِعٌ على جميعِ أعمالِكَ، فَاتَّقِ اللَّهَ يا بُنَيَّ، واحذَر أن يَراكَ على حالةٍ لا تُرضِيه.

احذَر أن يَسخَط عليك ربُّك الَّذي خَلَقَك ورَزَقَك، ووَهَبَك العقلَ الَّذي تَتَصرَّفُ به في شُئونِكَ، كيف يكونُ حالُك إذا اطَّلَعَ عليك أبوك وأنتَ تَفعَلُ أمرًا نهاك عنه؟ أَمَا تَخشى أن يُشدِّدَ عليك العقوبةَ؟ فَليَكُن حالُك معَ اللَّهِ كذلك؛ لأنَّه يَراكَ مِن حيثُ لا تراهُ، فلا تُفرِّط في شيءٍ أَمَرَكَ به، ولا تَمدُد يَدَكَ إلى شيءٍ نَهاك عنه.

يا بُنَيَّ! إنَّ ربَّكَ شديدُ البَطشِ، شديدُ العقابِ، فاحذَرهُ يا بُنَيَّ، واتَّقِ غَضَبَه وسَخَطَه، ولا يَغُرَّنَّك حِلمُه، و«**إنَّ اللَّهَ يُملي للظَّالِمِ، حتَّى إذا أَخَذَهُ لم يُفلِتهُ**»(١).

= في «حلية الأولياء»: ٢/ ١٦٠، واللفظ له] عن عمران بن حصين ﷺ، وأشار السيوطي إلى أنه حديث ضعيف، [والحديث حسن بشواهده].

(١) هذا لَفظُ حديثٍ شَرِيفٍ، رواه البخاري [٤٦٨٦] ومسلم [٢٥٨٣]، =

يا بُنَيَّ! إنَّ في طاعةِ اللَّهِ مِن اللَّذَّةِ والرَّاحةِ ما لا يُعرَفُ إلَّا بِالتَّجرِبةِ؛ فيا بُنَيَّ استَعمِل طاعةَ مَولاكَ على سبيلِ التَّجرِبةِ أيَّامًا لِتُدرِكَ هذه اللَّذَّةَ، وتَشعُرَ بهذه الرَّاحةِ، وتَعلَمَ إخلاصي لك في النَّصيحةِ.

يا بُنَيَّ! إنَّك سَتَجِدُ في طاعةِ اللَّهِ ثِقَلًا على نَفسِكَ أوَّلَ الأمرِ، فاحتَمِل هذا الثِّقَلَ، واصبِر عليه، حتَّى تَصيرَ الطَّاعةُ عندَك مِنَ العاداتِ الَّتي تَألَفُها.

يا بُنَيَّ! انظُر إلى نفسِكَ حينَما كنتَ في المكتبِ تَتَعَلَّمُ القراءةَ والكتابةَ، وتُؤمَرُ بحفظِ القرآنِ الكريمِ غَيبًا، ألم تَكُن إذ ذاك تَكرَهُ المكتبَ والمُعلِّمَ، وتَتَمنَّى أن تكونَ مُطلَقَ السَّراحِ؟ فها أنتَ اليومَ قد بَلَغتَ الدَّرَجةَ الَّتي عَرَفتَ بها فائدةَ الصَّبرِ على التَّعلُّمِ في المكتبِ، وعَلِمتَ أنَّ مُعلِّمَك كان ساعيًا في مَصلَحتِكَ.

فيا بُنَيَّ اسمَع نصيحتي، واصبِر على طاعةِ اللَّهِ كما صَبَرتَ على التَّعلُّمِ في المكتبِ، وسوف تَعلَمُ فائدةَ هذه النَّصيحةِ،

= والترمذي في «صحيحه» [٣١١٠]، وابن ماجه [٤٠١٨] عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ.

يا بُنَيَّ! إنَّ في طاعةِ اللَّهِ مِن اللَّذَّةِ والرَّاحةِ ما لا يُعرَفُ إلَّا بِالتَّجرِبةِ؛ فيا بُنَيَّ استَعمِل طاعةَ مَولاكَ على سبيلِ التَّجرِبةِ أيَّامًا لِتُدرِكَ هذه اللَّذَّةَ، وتَشعُرَ بهذه الرَّاحةِ، وتَعلَمَ إخلاصي لك في النَّصيحةِ.

يا بُنَيَّ! إنَّك سَتَجِدُ في طاعةِ اللَّهِ ثِقَلًا على نَفسِكَ أوَّلَ الأمرِ، فاحتَمِل هذا الثِّقَلَ، واصبِر عليه، حتَّى تَصيرَ الطَّاعةُ عندَك مِنَ العاداتِ الَّتي تَألَفُها.

يا بُنَيَّ! انظُر إلى نفسِكَ حينَما كنتَ في المكتبِ تَتَعَلَّمُ القراءةَ والكتابةَ، وتُؤمَرُ بحفظِ القرآنِ الكريمِ غَيبًا، ألم تَكُن إذ ذاك تَكرَهُ المكتبَ والمُعلِّمَ، وتَتَمنَّى أن تكونَ مُطلَقَ السَّراحِ؟ فها أنتَ اليومَ قد بَلَغتَ الدَّرَجةَ الَّتي عَرَفتَ بها فائدةَ الصَّبرِ على التَّعلُّمِ في المكتبِ، وعَلِمتَ أنَّ مُعلِّمَك كان ساعيًا في مَصلَحتِكَ.

فيا بُنَيَّ اسمَع نصيحتي، واصبِر على طاعةِ اللَّهِ كما صَبَرتَ على التَّعلُّمِ في المكتبِ، وسوف تَعلَمُ فائدةَ هذه النَّصيحةِ،

= والترمذي في «صحيحه» [٣١١٠]، وابن ماجه [٤٠١٨] عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ.

وتَظهَرُ جَلِيًّا إذا ساعَدَتكَ العِنايةُ الإلهيَّةُ على العملِ بنصيحةِ أُستاذِكَ.

يا بُنَيَّ! إيَّاكَ أن تَظُنَّ أنَّ تَقوى اللَّهِ هي الصَّلاةُ والصِّيامُ ونحوُهما مِن العباداتِ فقط؛ إنَّ تَقوى اللَّهِ تَدخُلُ في كلِّ شيءٍ، فاتَّقِ اللَّهَ في عبادةِ مولاكَ، لا تُفرِّط فيها، واتَّقِ اللَّهَ في إخوانِك، لا تُؤذِ أحدًا منهم، واتَّقِ اللَّهَ في بَلدِك لا تَخُنهُ، ولا تُسلِّط عليه عدوًّا، واتَّقِ اللَّهَ في نَفسِكَ، لا تُهمِل في صحَّتِكَ، ولا تَتَخلَّق بِسوَى الأخلاقِ الفاضلةِ.

يا بُنَيَّ! قالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «**اتَّقِ اللَّهَ حيثُما كنتَ، وأَتبِعِ السَّيِّئةَ الحسنةَ تَمحُها، وخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»[1].

* * *

(١) رواه الإمام أحمد [٢١٣٥٤] والترمذي [١٩٨٧، وقال: «حديث حسن صحيح»]، والحاكم [في «المستدرك»: ١/ ٥٤، وقال: «حديث صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي] عن أبي ذر ومعاذ بن جبل [رضي الله عنهما]، وقال الترمذي: «الصحيح: حديث أبي ذَرٍّ»].

الدَّرسُ الثَّالثُ

في حقوقِ الخلَّاقِ العظيمِ

وحقوقِ رسولِه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ

يا بُنَيَّ! إنَّ اللَّهَ تَبارَكَ وتعالى هو الَّذي خَلَقَكَ، وأَوجدَك، وأَسبَغَ عليك نِعَمَه ظاهرةً وباطنةً، ألم تَعلَم أنَّك في أوَّلِ أمرِكَ كنتَ نُطفةً في بطنِ أُمِّكَ، فما زِلتَ تَتقلَّبُ في نِعمةِ ربِّكَ ورحمتِه حتَّى وَلَدَتكَ إنسانًا كاملًا، وَهَبَ لك لسانًا تَتكلَّمُ به، وعينًا تُبصِرُ بها، وأُذُنًا تَسمَعُ بها، وعَقلًا تُدرِكُ به ما يَضُرُّكَ وما يَنفَعُك: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، أليس الَّذي وَهَبَكَ هذه النِّعَمَ تَفضُّلًا منه وإحسانًا -قادرًا على سَلبِها إذا أَغضَبتَه فَغَضِبَ عليك؟

يا بُنَيَّ! أوَّلُ واجبٍ عليك لِخالقِك جلَّ شأنُه أن تَعرِفَه بصفاتِه الكماليَّةِ، وأن تكونَ شديدَ الحرصِ على طاعتِه؛ بامتثالِ أوامرِه، واجتنابِ نَواهيه، وأن تَعتقِدَ اعتقادًا جازمًا أنَّ الخيرَ فيما يختارُه اللَّهُ لك، لا فيما تختارُه أنتَ لنفسِكَ، فلا تَصُدَّنَّكَ عن طاعةِ مَولاك وعبادتِه الشَّهَواتُ والمَلاهي، ولا طاعةُ أحدٍ مِنَ المخلوقاتِ، عظيمًا كانَ أو حقيرًا.

الدَّرسُ الرَّابعُ

في حقوقِ الوالدَينِ

يا بُنَيَّ! مهما تكبَّدتَ مِنَ المَشقَّاتِ في خِدمةِ أبيك وأُمِّكَ، فإنَّ حقوقَهما عليك فوقَ ذلك أضعافًا مُضاعَفةً: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

يا بُنَيَّ! انظُر إلى الطِّفلِ الصَّغيرِ، وإلى إشفاقِ أَبَويهِ عليه، واعتنائِهما بصحَّتِه وطعامِه وشرابِه، ومَلاذِّه في ليلِه ونهارِه، وصحَّتِه وسَقَمِه -تَعلَمْ مِقدارَ ما قاسى أَبَواكَ في تَربِيَتِكَ حتَّى بَلَغتَ مَبلَغَ الرِّجالِ.

يا بُنَيَّ! إنَّك في هذه السَّاعةِ الَّتي وفَّقني اللَّهُ لِأَن أَتولَّى إرشادَك فيها -لا تَزالُ تَتقلَّبُ في نعمةِ أبيكَ الَّذي يُواليكَ بالنَّفقةِ بما في وُسعِه، ولا يَضنُّ عليك بما في طاقتِه؛ لولا أَبَواكَ ما استَطَعتَ أن تَجلِسَ هذا المَجلِسَ بينَ طلَّابِ العِلمِ الشَّريفِ.

يا بُنَيَّ! كلُّ إنسانٍ يُحِبُّ أن يكونَ رَفيعَ القَدرِ، عظيمَ الجاهِ، محبوبًا عندَ اللَّهِ، وعندَ النَّاسِ، ويتمنَّى أن يكونَ مَقامُه فوقَ كلِّ مَقامٍ، لكنَّ الوالدَ يُحِبُّ لِوَلدِه أن يكونَ أَرفَعَ منه مَنزِلةً، وأكبَرَ

منه مَقامًا؛ وأعزَّ منه جاهًا؛ فبماذا يجبُ أن تُعامِلَ مَن يُقدِّمُك على نفسِه، ويَتمنَّى لك أكثرَ ممَّا يَتمنَّى لها؟

يا بُنَيَّ! احذَر كلَّ الحَذَرِ أن تُغضِبَ أباكَ، أو تُغضِبَ أُمَّكَ، إنَّ غَضَبَ اللَّهِ مقرونٌ بغضبِ الوالدَينِ؛ ومَن غَضِبَ اللَّهُ عليه فقد خَسِرَ الدُّنيا والآخرةَ.

يا بُنَيَّ! أَطِع أباك وأُمَّكَ؛ ولا تُخالِفهُما في شيءٍ، إلَّا إذا أَمَراكَ بمعصيةِ مَولاكَ، فإنَّه «**لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالقِ**»(١)، ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤، ١٥].

يا بُنَيَّ! إنَّ أَشَدَّ النَّاسِ حبًّا لك هو أبوكَ الَّذي تَوَلَّى تَربِيتَك صغيرًا، وسَلَكَ طريقَ الرَّشادِ في تَعليمِكَ، حتَّى صِرتَ من

(١) هو حديث شريف، رواه الإمام أحمد [٢٠٦٥٣ بنحو هذا اللفظ] والحاكم [في «المستدرك»: ٣/ ٤٤٣ بنحوه، وقال الحاكم: «حديث صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي] عن عمران بن حصين، والحكم بن عمرو الغفاري.

الدَّرسُ الرَّابعُ

في حقوقِ الوالدَينِ

يا بُنَيَّ! مهما تكبَّدتَ مِنَ المَشقَّاتِ في خِدمةِ أبيك وأُمِّكَ، فإنَّ حقوقَهما عليك فوقَ ذلك أضعافًا مُضاعَفةً: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

يا بُنَيَّ! انظُر إلى الطِّفلِ الصَّغيرِ، وإلى إشفاقِ أَبَويهِ عليه، واعتنائِهما بصحَّتِه وطعامِه وشرابِه، ومَلاذِّه في ليلِه ونهارِه، وصحَّتِه وسَقَمِه -تَعلَمْ مِقدارَ ما قاسى أَبَواكَ في تَربِيَتِكَ حتَّى بَلَغتَ مَبلَغَ الرِّجالِ.

يا بُنَيَّ! إنَّك في هذه السَّاعةِ الَّتي وفَّقني اللَّهُ لِأَن أَتولَّى إرشادَك فيها -لا تَزالُ تَتقلَّبُ في نعمةِ أبيكَ الَّذي يُواليكَ بالنَّفقةِ بما في وُسعِه، ولا يَضنُّ عليكِ بما في طاقتِه؛ لولا أَبَواكَ ما استَطَعتَ أن تَجلِسَ هذا المَجلِسَ بينَ طلَّابِ العِلمِ الشَّريفِ.

يا بُنَيَّ! كلُّ إنسانٍ يُحِبُّ أن يكونَ رَفيعَ القَدرِ، عظيمَ الجاهِ، محبوبًا عندَ اللَّهِ، وعندَ النَّاسِ، ويتمنَّى أن يكونَ مَقامُه فوقَ كلِّ مَقامٍ، لكنَّ الوالدَ يُحِبُّ لِوَلدِه أن يكونَ أرفَعَ منه مَنزِلةً، وأكبَرَ

منه مَقامًا؛ وأعزَّ منه جاهًا؛ فبماذا يجبُ أن تُعامِلَ مَن يُقدِّمُك على نفسِه، ويَتمنَّى لك أكثرَ ممَّا يَتمنَّى لها؟

يا بُنَيَّ! احذَر كلَّ الحَذَرِ أن تُغضِبَ أباكَ، أو تُغضِبَ أُمَّكَ، إنَّ غَضَبَ اللَّهِ مقرونٌ بغضبِ الوالدَينِ؛ ومَن غَضِبَ اللَّهُ عليه فقد خَسِرَ الدُّنيا والآخرةَ.

يا بُنَيَّ! أَطِع أباك وأُمَّكَ؛ ولا تُخالِفهُما في شيءٍ، إلَّا إذا أَمَراكَ بمعصيةِ مَولاكَ، فإنَّه «**لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالقِ**»[1]، ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤، ١٥].

يا بُنَيَّ! إنَّ أَشَدَّ النَّاسِ حبًّا لك هو أبوكَ الَّذي تَوَلَّى تَربِيتَك صغيرًا، وسَلَكَ طريقَ الرَّشادِ في تَعليمِكَ، حتَّى صِرتَ من

(١) هو حديث شريف، رواه الإمام أحمد [٢٠٦٥٣ بنحو هذا اللفظ] والحاكم [في «المستدرك»: ٣/ ٤٤٣ بنحوه، وقال الحاكم: «حديث صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي] عن عمران بن حصين، والحكم بن عمرو الغفاري.

طُلَّابِ العُلومِ الدِّينيَّةِ، فَاحرِص على قَبولِ نَصائحِه فهو أدرى منك بما يُصلِحُك، وما يَنفَعُك وما يَضُرُّك، واللَّهُ يَتَولَّى هدايتَك وإرشادَك وصلاحَك.

* * *

الدَّرسُ الخامسُ

في حقوقِ الإخوانِ

يا بُنَيَّ! ها أنتَ قد أَصبَحتَ مِن طَلَبةِ العِلمِ الشَّريفِ، ولك رُفقاءُ في دَرسِكَ، هم إخوانُك، وهم عشيرتُك، فإيَّاكَ أن تُؤذِيَ أحدًا منهم، أو تُسيءَ مُعامَلتَه.

يا بُنَيَّ! إذا جَلَستَ للدَّرسِ فلا تُضايِق أحدًا مِن إخوانِكَ، وافسَح له في المكانِ حتَّى يَتمكَّنَ مِنَ الجلوسِ؛ فإنَّ مُضايَقةَ الإخوانِ في مَجالسِهم تُوغِرُ الصُّدورَ، وتُولِّدُ الأحقادَ، وتُثيرُ الشُّرورَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [المجادلة: ١١].

يا بُنَيَّ! إذا أَشكَلَت مسألةٌ على أحدِ إخوانِك في دَرسِه، وطَلَبَ مِن الأستاذِ إيضاحَها له، فاستَمِع لِما يقولُه أستاذُك في الجوابِ، لعلَّك تستفيدُ مِن الإعادةِ فائدةً لم تكُن تَعرِفُها، وإيَّاكَ ثُمَّ إيَّاكَ أن تَستهزِئَ بأخيك السَّائلِ، أو تُظهِرَ له الاشمئزازَ، وإيَّاك ثُمَّ إيَّاك أن تتكلَّمَ بكلمةٍ تَدُلُّ على احتقارِه، أو أن يَظهَرَ على وَجهِكَ ما يُفيدُ الاستخفافَ بأفكارِه.

يا بُنَيَّ! قيلَ للإمامِ أبي حنيفةَ ﷺ: بِمَ بَلَغتَ ما بَلَغتَ مِنَ العِلمِ؟ قالَ: ما بَخِلتُ بالإفادةِ، ولا استَنكَفتُ عنِ الاستفادةِ[1].

فيا بُنَيَّ! لا تُضيِّق على إخوانِكَ طريقَ العِلمِ إذا طَلَبُوا مِن أُستاذِهم تحقيقَ مسألةٍ لم يَعرِفُوها حقَّ المعرفةِ، وشارِكهم في الاستماعِ إلى ما يقولُ الأستاذُ، إن كنتَ تُريدُ الخيرَ لِنَفسِكَ.

يا بُنَيَّ! إنَّ لك مِن إخوانِك مَن يُشارِكُكَ في المَسكَنِ والمَبيتِ، فاحرِص على راحةِ إخوانِكَ في مساكنِهِم، وإذا جاءَ وقتُ النَّومِ، فلا تُزعِجهُم بالمُطالَعةِ والمُذاكَرةِ، واطلُب لهم مِن الرَّاحةِ ما تَطلُبُه لِنَفسِكَ، فإذا طَلَعَ الفجرُ واستَيقَظتَ لأداءِ فريضةِ الصَّلاةِ، فَأَيقِظ إخوانَك بِرِفقٍ ولُطفٍ، وحافِظُوا على الصَّلاةِ في جماعةٍ، فإنَّ صلاةَ الجماعةِ أَفضَلُ مِنَ الصَّلاةِ أفذاذًا[2].

---

(١) [ذكره البدر العيني في «عمدة القاري»: ٢/ ٢١٠، عن أبي حنيفة، وذكره الزرنوجي في «تعليم المتعلم طريق التعلم»: ١٠٥، عن أبي يوسف القاضي].

(٢) [يدلُّ على ذلك حديث عبد اللَّه بن عمر ﷺ، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة». أخرجه البخاري (٦٤٥)، ومسلم (٦٥٠)].

يا بُنَيَّ! إذا استعانَ بك أحدُ إخوانِكَ على عملٍ لا يستطيعُ القيامَ به وَحدَه، فلا تَبخَل بمُساعدتِه، وإيَّاكَ أن تُظهِرَ له أنَّك صاحبُ الفضلِ عليه بهذه المُساعَدةِ.

يا بُنَيَّ! قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**المؤمنُ للمُؤمنِ كالبُنيانِ يَشُدُّ بعضُهُ بَعضًا**»(١).

* * *

(١) رواه البخاري [٢٤٤٦] ومسلم [٢٥٨٥] والترمذي [١٩٢٨، وقال: «حديث صحيح»]، والنسائي [٢٥٦٠] عن أبي موسى الأشعري [رضي الله عنه].

يا بُنَيَّ! إذا استعانَ بك أحدُ إخوانِكَ على عملٍ لا يستطيعُ القيامَ به وَحدَه، فلا تَبخَل بمُساعدتِه، وإيَّاكَ أن تُظهِرَ له أنَّك صاحبُ الفضلِ عليه بهذه المُساعَدةِ.

يا بُنَيَّ! قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**المؤمنُ للمُؤمنِ كالبُنيانِ يَشُدُّ بعضُهُ بَعضًا**»(١).

* * *

(١) رواه البخاري [٢٤٤٦] ومسلم [٢٥٨٥] والترمذي [١٩٢٨، وقال: «حديث صحيح»]، والنسائي [٢٥٦٠] عن أبي موسى الأشعري [رضي الله عنه].

الدَّرسُ السَّادسُ

في آدابِ طَلَبِ العِلمِ الشَّريفِ

يا بُنَيَّ! أَقبِل على طَلَبِ العِلمِ بِجِدٍّ ونشاطٍ، واحرِص على وَقتِكَ أن يَذهَبَ منه شيءٌ لا تَنتفِعُ فيه بمسألةٍ تستفيدُها.

يا بُنَيَّ! طالِع دُروسَك المُقرَّرةَ عليك مُطالَعةً جيِّدةً قبلَ استِماعِها مِنَ الأستاذِ في مَجلِسِ الدَّرسِ، وإذا أَشكَلَ عليك الأمرُ في مسألةٍ مِن المسائلِ، فلا تَستَنكِف مِن عَرضِها على أَحَدِ إخوانِكَ، لِتَشترِكَ معَه في فَهمِها، ولا تَنتقِل مِن مسألةٍ إلى أخرى قبلَ فَهمِ الأُولى فَهمًا جيِّدًا، وإذا أَجلَسَكَ الأستاذُ في مكانِكَ الَّذي عيَّنَه لك مِنَ الدُّروسِ، فلا تَجلِس في غَيرِه، وإذا تَعَدَّى عليك أحدُ إخوانِكَ بالجُلوسِ فيه فلا تُنازِعهُ، ولا تُشاتِمهُ، وارفَعِ الأمرَ إلى أُستاذِكَ حتَّى يُقيمَه ويُجلِسَكَ في مكانِكَ المُعيَّنِ.

يا بُنَيَّ! إذا شَرَعَ الأستاذُ في قراءةِ الدَّرسِ فلا تَتَشاغَل عنه بالحديثِ، ولا بالمُناقَشةِ معَ إخوانِك، وأَصغِ إلى ما يقولُه الأستاذُ إصغاءً تامًّا، وإيَّاكَ أن تَشغلَ فِكرَكَ بشيءٍ آخَرَ مِنَ الهواجسِ النَّفسيَّةِ أثناءَ الدَّرسِ، وإذا أَشكَلَت عليك مسألةٌ بعدَ تَقريرِها فاطلُب مِنَ الأُستاذِ بالأدبِ والكمالِ إعادتَها،

وإيَّاكَ أن تَرفَعَ صوتَك على أُستاذِكَ، أو تُنازِعَه إذا أَعرَضَ عنك ولم يَلتَفِت إلى قَولِكَ.

يا بُنَيَّ! إذا خَرَجَ التِّلميذُ عن حدِّ الأدبِ بينَ يَدَي أُستاذِه سَقَطَت قيمتُه عندَ أُستاذِه، وعندَ إخوانِه، واستَحَقَّ التَّأديبَ، والزَّجرَ على قلَّةِ أَدَبِه.

يا بُنَيَّ! إذا لم تَحتَرِم أُستاذَك فوقَ احترامِكَ لأبيكَ لم تَستَفِد مِن عُلومِه، ولا مِن دَرسِه شيئًا.

يا بُنَيَّ! زِينةُ العِلمِ التَّواضُعُ والأدبُ، فمَن تَواضَعَ للَّهِ رَفَعَه، وحبَّبَ فيه خَلقَه، ومَن تكبَّرَ وأَساءَ الأدبَ سَقَطَ مِن أَعيُنِ النَّاسِ، وبغَّضَه اللَّهُ إليهم، فلا يكادُ يَجِدُ إنسانًا يُكرِمُه أو يُشفِقُ عليه.

يا بُنَيَّ! لا شيءَ أَضَرُّ على طالبِ العِلمِ مِن غَضَبِ الأساتذةِ والعلماءِ، فإيَّاكَ يا بُنَيَّ أن تُغضِبَ أحدًا مِنَ المُدرِّسِينَ، أو تُسيءَ الأدبَ أمامَه، فإنَّ أقلَّ ما يُنتِجُهُ غضبُ الأساتذةِ الحِرمانُ والقطيعةُ، فَاقْبَل يا بُنَيَّ نصيحتي لك، والتَمِس رضوانَ مَشايِخِكَ، واسأَلهُمُ الدُّعاءَ لك بالفتحِ، عسى اللَّهُ أن يَستجيبَ دُعاءَهم لك، وإذا خَلَوتَ بنفسِك، فأَكثِر مِنَ الدُّعاءِ والابتهالِ إلى اللَّهِ تعالى أن يَرزُقَك العِلمَ النَّافعَ والعملَ به، إنَّ ربَّك سميعُ الدُّعاءِ، واسعُ الكَرَمِ والجُودِ.

الدَّرسُ السَّابعُ

في أدبِ المُطالَعةِ والمُذاكَرةِ والمُناظَرةِ

يا بُنَيَّ! إن أَرَدتَ الخيرَ لِنَفسِكَ فلا تُطالِع دَرسَك وَحدَك، واتَّخِذ لك صديقًا مِن إخوانِك يُشارِكُك في المُطالَعةِ، ويُعينُك على الفَهمِ، فإذا مَرَرتَ بمسألةٍ وظَنَنتَ أنَّك فَهِمتَها، فلا تَكتفِ بظنِّكَ حتَّى تَدَعَ الكتابَ مِن يَدِكَ، وتُقرِّرَها لِنَفسِكَ أو لمَن معَك، كأنَّك تُلقي دَرسًا على المتعلِّمين.

يا بُنَيَّ! تَأَدَّب معَ أخيك الَّذي تختارُه للمُطالَعةِ، وإذا فَهِمتَ مَسألةً قَبلَه فلا تَفتَخِر عليه بالسَّبقِ؛ وإذا عارَضَك في فَهمِ مسألةٍ فاستَمِع لِما يقولُ؛ فربَّما يكونُ الحقُّ معَه، وأنتَ مخطئٌ في فَهمِكَ، وإيَّاك والمُجادلةَ بالباطلِ، والانتصارَ لِرَأيِكَ إن كانَ خطأً، فإنَّ العِلمَ أمانةٌ؛ ومَنِ انتَصَرَ للباطلِ فقد ضيَّعَ أمانةَ اللَّهِ.

يا بُنَيَّ! أَكثِر مِنَ المُذاكَرةِ لِما حصَّلتَ مِنَ العُلومِ، فإنَّ «**آفةَ العِلمِ النِّسيانُ**»[1]، واعلَم أنَّك في نهايةِ العامِ ستُمتَحَنُ في كلِّ

(١) [روي هذا اللفظ مرفوعًا بسند مُعضَلٍ ضعيف، أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦٦٦٣)، والدارمي في «السنن» (٦٤٨) عن الأعمش، قال: قال رسول اللَّه ﷺ «آفةُ العِلم: النِّسيان، =

معلوماتِكَ، وعندَ الامتحانِ يُكرَمُ المرءُ إذا أحسَنَ الإجابةَ؛ ويَستهِينُ به أهلُه وإخوانُه إذا لم يُحسِنِ الجوابَ، وظَهَرَ أنَّه مُفرِّطٌ في التَّحصيلِ.

يا بُنَيَّ! إيَّاك أن تكونَ مُذاكَرَتُكَ عبارةً عن حفظِ ألفاظٍ لا تَعقِلُ معناها، ولكنِ اجعَل هِمَّتَك مُوجَّهةً إلى تَعقُّلِ المَعاني وتَثبيتِها في ذِهنِكَ؛ فإنَّ العِلمَ هو ما تَفهَمُه لا ما تَحفَظُه.

يا بُنَيَّ! قلَّما اجتَمَعَ طالبٌ معَ زُمرةٍ مِن إخوانِه، إلَّا كان مَدارُ المُحاوَرةِ بينَهم على المُناظَرةِ والمُفاوَضةِ في المسائلِ الَّتي يَعرفونها، فلا تَقطَع على مُتكلِّمٍ حديثَه، ولا تَتَسرَّع بالإجابةِ قبلَ التَّثبُّتِ، ولا تُنازِع في مسألةٍ لم يَسبِق لك الاطِّلاعُ عليها، ولا تُجادِل بغيرِ الحقِّ، ولا تُظهِرِ العَظمةَ على مَن يُناظِرُك، ولا تَخرُج عن موضوعِ المُناظَرةِ إلى تَسفيهِ رأيِ مُناظِرِكَ، ولا إلى تَقريعِه بالكلامِ المُؤلِمِ، ولا إلى تَوبيخِه إذا ظَهَرَ خَطَؤُهُ في الفَهمِ.

= وإضاعتُه: أن تُحدِّثَ به غيرَ أهله».

وأخرجه الدارمي (٦٤٧) عن حكيم بن جابر، قال: قال عبد اللَّه «إنَّ لكلِّ شيء آفة، وآفةُ العِلم النِّسيان»، وأخرجه أيضًا (٦٤٥) عن الزهري قال: «آفةُ العِلم: النِّسيان، وترك المذاكرة»].

يا بُنَيَّ! المُحاوَرةُ بينَ الطُّلَّابِ في المسائلِ العِلميَّةِ جزيلةُ الفوائدِ، تُقوِّي الفَهمَ، وتُطلِقُ اللِّسانَ، وتُعينُ على حُسنِ التَّعبيرِ عنِ الأغراضِ المقصودةِ، وتُولِّدُ في الطَّالبِ الجُرأةَ والإقدامَ، ولكنْ يا بُنَيَّ لا يَنفَعُكَ هذا عندَ اللَّهِ ولا عندَ النَّاسِ إلَّا إذا كنتَ مُهذَّبَ الأخلاقِ؛ بعيدًا عنِ الفُحشِ في القولِ، تقولُ الحقَّ ولو على نَفسِكَ، ولا تَأخُذُكَ في الحقِّ لَومةُ لائمٍ.

* * *

الدَّرسُ الثَّامنُ

في آدابِ الرِّياضةِ والمشيِ في الطُّرُقاتِ

يا بُنَيَّ! إنَّك في بعضِ أوقاتِ فَراغِكَ لا تَستغني عنِ الرِّياضةِ البَدَنيَّةِ، حتَّى يَتجدَّدَ نشاطُكَ لِمُزاوَلةِ دُروسِكَ، فإذا خَرَجتَ للرِّياضةِ فاقصِدِ الأماكنَ الجيِّدةَ الهواءِ مِنَ الضَّواحي، وعليك السَّكينةَ والوَقارَ، فلا تُسرِع في مِشيَتِكَ، ولا تُمازِح أحدًا في طريقِك، ولا تَضحَك إلَّا بقَدرِ التَّبسُّمِ.

يا بُنَيَّ! إذا خَرَجتَ للرِّياضةِ -أو لغَيرِها- معَ إخوانِك فإيَّاكم أن تَعترضُوا أحدًا مِن المارَّةِ في الطُّرُقاتِ، وإيَّاكم أن تَصطَفُّوا في طريقِ العامَّةِ، فإن كان الطَّريقُ واسعًا، فامشُوا مَثنَى مَثنَى، وإلَّا فامشُوا فُرادَى؛ واحدًا فواحدًا.

يا بُنَيَّ! إنَّ الطُّرُقَ العموميَّةَ ليست مملوكةً لأحدٍ، وإنَّما لكلِّ مارٍّ حقُّ المرورِ فيها، فلا تَزدَحِمُوا في الطُّرُقاتِ، فإنَّ ذلك يُزري بطلبةِ العِلمِ الشَّريفِ، ويَذهَبُ باحترامِ النَّاسِ لهم.

يا بُنَيَّ! إذا رأيتَ في طريقِكَ غَوغاءَ أو فئةً يَضرِبُ بعضُها بعضًا فإيَّاكَ أن تُعرِّجَ عليهم، أو تَقتربَ منهم، فربَّما كان ذلك سببًا لإهانتِكَ، أو اتِّهامِكَ بشيءٍ أنتَ منه بريءٌ.

يا بُنَيَّ! إذا تَعَدَّى عليك أحدٌ في طريقِكَ مِن عامَّةِ النَّاسِ، فلا تُقابِلِ العُدوانَ بمِثلِه، واعفُ عمَّن ظَلَمَك يَرفَعِ اللَّهُ قَدرَك: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠]؛ بهذا الخُلُقِ الجميلِ أدَّبَنا اللَّهُ في كتابِه العزيزِ.

يا بُنَيَّ! إذا خَرَجتَ مِنَ المسجدِ -أو مِنَ المَسكَنِ- لِشِراءِ شيءٍ تحتاجُ إليه مِن طعامٍ، أو شرابٍ، أو كسوةٍ، أو نحوِ ذلك فلا تَتَعرَّض لِمُنازَعةِ السُّفهاءِ، ولا تُعرِّض نَفسَك لِسَماعِ ألفاظِهم البذيئةِ، وابتعِد عن هؤلاءِ القومِ جَهدَكَ، وإيَّاكَ والمُماحَكةَ معَ الباعةِ في تقديرِ الأثمانِ، فإن وَافقَكَ الثَّمَنَ اشتَرَيتَ، وإلَّا فانصرِف بسلامٍ، وإيَّاك أن تَتَعرَّضَ للباعةِ بقَصدِ المُساوَمةِ فقط دونَ الشِّراءِ، فإنَّ ذلك يَدعُوهُم إلى إسماعِكَ ما تكرَهُ مِن كَلِماتِ التَّقريعِ والازدِراءِ.

يا بُنَيَّ! إذا حدَّثتَ إنسانًا فلا تَرفَع صوتَك إلَّا بمِقدارِ ما تُسمِعُه، وكُن لطيفَ القولِ، حَسَنَ الحديثِ، واحذَر أن تَتكلَّمَ بكلمةٍ يَنقُصُ بها قَدرُكَ عندَ مَن تُحدِّثُه، ولو كانَ مِن أمثالِكَ في السِّنِّ والمنزلةِ، وإذا حدَّثَك إنسانٌ فَأحسِن الاستماعَ له، ولا تُقابِلهُ بالغِلظةِ والفَظَاظةِ: «**وخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»[1].

(١) [تقدَّم تخريجه].

الدَّرسُ التَّاسعُ

في أَدَبِ المَجالِسِ وأَدَبِ الحديثِ

يا بُنَيَّ! إذا مَرَرتَ بقومٍ فَأَقرِئْهُمُ السَّلامَ باللَّفظِ المعروفِ الَّذي وَرَدَت به السُّنَّةُ النَّبويَّةُ، وهو قولُك: «**السَّلامُ عليكم**»[1]، ولا تَتَجاوَز هذه التَّحيَّةَ إلى غيرِها مِنَ المُستَحدَثاتِ، ولا تَدخُل مَجلِسَ قومٍ إلَّا بعدَ الاستِئذانِ، فربَّما كانوا يَتَفاوَضُونَ في أمرٍ لا يُحبُّونَ أن يُشارِكَهم فيه غيرُهم، وتَجنَّب التَّطفُّلَ على النَّاسِ جَهدَكَ؛ فإنَّ الطُّفَيليَّ ثقيلٌ على النُّفوسِ، وإن كان أعلَمَ أهلِ عصرِه.

يا بُنَيَّ! انظُر إلى نفسِكَ؛ إذا كنتَ في بيتِكَ -مَثَلًا- تَعمَلُ عملًا تحبُّ ألَّا يَطَّلِعَ عليه أحدٌ غيرُك، ففاجأَك إنسانٌ

(١) [ورد ذلك في أحاديث منها: ما أخرجه البخاري (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٨٤١) من حديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: «خلق اللَّه آدم وطوله ستون ذراعًا، ثم قال: اذهب فسلم على أولئك من الملائكة، فاستمع ما يحيونك، تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة اللَّه، فزادوه: ورحمة اللَّه، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن»].

بالدُّخولِ عليكَ، أَلستَ تُحِسُّ بثِقَلِه، وتَتَمنَّى ذَهابَه؟ فكذلك حالُكَ إذا غَشِيتَ قومًا بدُونِ استئذانٍ، ولا رغبةٍ منهم في وُجودِكَ معَهُم.

يا بُنَيَّ! إذا دُعِيتَ لمجالسةِ قومٍ، وكنتَ أَصغَرَهم سِنًّا فلا تَجلِس حتَّى يَأذَنَك القومُ بالجلوسِ، وإذا جَلَستَ فلا تُزاحِم أحدًا مِن جُلَسائِكَ، ولا تَضطَرَّ جالسًا إلى أن يَترُكَ مَجلِسَه لأَجلِكَ، ولا تَتَقدَّم إلى موضعٍ رفيعٍ؛ إذا كان في المجلسِ مَن هو أحقُّ منك بالجلوسِ فيه، وإذا جَلَستَ في موضعٍ ثمَّ جاءَ مَن هو أولَى منك بالجلوسِ فيه فاترُك له ذلك الموضعَ قبلَ أن تُؤمَرَ بالتَّنحِّي عنه؛ يَزِدِ احترامُك في أَعيُنِ جُلسائِكَ.

يا بُنَيَّ! إذا جَلَستَ في قومٍ فلا تَدخُل معَهم في حديثِهم حتَّى يُدخِلُوك، ولا تَتكلَّم وفي القومِ مَن هو أولَى منكَ بالكلامِ، وإذا تَكَلَّمتَ فلا تَقُل إلَّا حقًّا، ولا تَتَوسَّع في المَقالِ إلَّا بقَدرِ إقامةِ الحُجَّةِ، ولا تُناقِش جُلَساءَكَ إلَّا بالأدبِ والتَّحفُّظِ مِن سَقَطاتِ اللِّسانِ، وإيَّاكَ والقَهقَهةَ في المَجالسِ؛ فإنَّه مِن أَخلاقِ السَّفِلةِ ورَعاعِ النَّاسِ، وأَقْلِل مِن المِزاحِ جَهدَكَ، فإنَّ كَثرَةَ المِزاحِ تَذهَبُ بالاحترامِ، وربَّما أَوغَرَت صدورَ بعضِ النَّاسِ عليك.

يا بُنَيَّ! لا تُجالِس مِنَ النَّاسِ إلَّا أهلَ المروءةِ والشَّرَفِ

والعِفَّةِ والكمالِ، وإيَّاكَ ومُخالَطةَ السُّفهاءِ ومُجالَسَتَهُم، واحذَر مَجالِسَ الغِيبةِ والنَّميمةِ جَهدَكَ، ولا تُجالِس أَحَدًا مِنَ الفُسَّاقِ والفُجَّارِ، وإيَّاكَ ومُعاشَرةَ أهلِ الخُبثِ والدَّسائسِ والنِّفاقِ، فإنَّ الأخلاقَ السَّيِّئةَ تَسري في الجُلساءِ كما تَسري النَّارُ في الحَطَبِ.

* * *

الدَّرسُ العاشرُ

في آدابِ الطَّعامِ والشَّرابِ

يا بُنَيَّ! إذا كنتَ تُريدُ أن تعيشَ صحيحَ البِنيةِ سليمًا مِنَ الأمراضِ، فلا تُدخِل في مَعِدَتِكَ طعامًا على طعامٍ؛ لا تأكُل إلَّا إذا كنتَ جائعًا، وإذا أكَلتَ فلا تَملَأ بَطنَكَ مِنَ الطَّعامِ، قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «ما مَلَأَ ابنُ آدَمَ وِعاءً شَرًّا مِن بَطنِهِ»[1].

يا بُنَيَّ! إذا كانت بك حاجةٌ إلى الطَّعامِ فاغسِل يَدَيكَ أوَّلًا، واذكُرِ اسمَ اللَّهِ على طَعامِكَ، ولا تَبتَلِعِ الطَّعامَ ابتِلاعًا، ولكنِ امضُغِ اللُّقمةَ مَضغًا جيِّدًا، فإنَّ جودةَ المَضغِ تُعينُ على الهَضمِ، وكُلْ ممَّا يَليكَ؛ لا تُذهِب يَدَكَ في الإناءِ ههنا وههنا، فإنَّ ذلكَ مِنَ الشَّرَهِ الممقوتِ.

يا بُنَيَّ! إيَّاكَ أن تَفعَلَ كما يَفعَلُ السَّفِلةُ ورَعاعُ النَّاسِ؛ فلا تأكُل في الأسواقِ، ولا على قارعةِ الطَّريقِ، ولو على سبيلِ التَّفكُّهِ، فإنَّ ذلك يُسقِطُ المُروءةَ، ويُزري بأهلِ الفضلِ.

---

(١) رواه الإمام أحمد [١٧١٨٦] والترمذي [٢٣٨٠، وقال: «حديث حسن صحيح»] وابن ماجه [٣٣٤٩] والحاكم [٤/ ٣٣١، وقال: «حديث صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي] عن المقدام بن مَعْدِيكَرِبَ [رضي اللَّه عنه].

يا بُنَيَّ! إيَّاك والبُخلَ، وإيَّاك والشَّرَهَ، فإذا جَلَستَ للأكلِ وبِجانِبِكَ إنسانٌ تَعرِفُه أو لا تَعرِفُه فادعُه لمُؤاكلتِكَ؛ وإذا بَقِيَت منك بقيَّةٌ، فتَصدَّق بها على أهلِ الحاجةِ؛ ولا تَستَصغِر شيئًا تَتَصدَّقُ به، فإنَّ للقليلِ مِنَ الصَّدقةِ مَوضِعًا لا يَستغني عنه الفقراءُ، وإذا تَصَدَّقتَ على فقيرٍ فلا تَزدَرِ به، ولا تُتبِع صَدَقَتَكَ بِأَذَى مَن تَصَدَّقتَ عليه ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٣]، واجتَهِد أن تُخفِيَ صَدَقَتَكَ عنِ النَّاسِ؛ فإنَّ صَدَقةَ السِّرِّ تُطفِئُ غَضَبَ اللَّهِ تعالى[1].

يا بُنَيَّ! اتَّقِ الأكلَ والشُّربَ في الأواني القَذِرةِ، فربَّما جَلَبتَ لِنَفسِكَ مِنَ الأمراضِ بقذارةِ الأواني ما لا يَنفَعُكَ فيه طبُّ الطَّبيبِ، ولا علاجُ الحكيمِ، ولا تَشرَب مِنَ الماءِ إلَّا

(١) عن معاوية بن حيدة، عن النبي ﷺ قال: «إن صدقة السر تطفئ غضب الرب تبارك وتعالى» رواه الطبراني في «المعجم الكبير» [١٩/ ٤٢١ (١٠١٨)] من حديث معاوية بن حيدة رضي الله عنه، وفي إسناده صدقة السمين، وهو ضعيف، انظر: «ميزان الاعتدال» ٢/ ٣١٠، وجاء هذا المعنى أيضًا في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن الصدقة لتطفئ غضب الرب، وتدفع ميتة السوء»، أخرجه الترمذي (٦٦٤)، وقال: «حديث حسن غريب»، وله شواهد عن جمع من الصحابة، انظر: «البدر المنير» لابن المُلَقِّن: ٧/ ٤٠٧].

ما كانَ نقيًّا مِنَ الأدرانِ، وإذا شَرِبتَ فَسَمِّ اللَّهَ قبلَ أن تَشرَبَ، ولا تَشرَبِ الماءَ عَبًّا[1]، ولكنِ اشرَبهُ مصًّا، قليلًا قليلًا، واسترِح في شُربِكَ، وَليَكُن ثلاثَ مرَّاتٍ، تَفصِلُ بينَ كلِّ مرَّةٍ وأخرى بذكرِ اسمِ اللَّهِ تعالى.

وإذا فَرَغتَ مِنَ الطَّعامِ والشَّرابِ، فاحمَدِ اللَّهَ الَّذي أطعَمَكَ وسَقاكَ، واشكُره على نِعَمِه الَّتي لا يُحصيها العَدُّ، واللَّهُ يَتولَّى هدايتَك وإرشادَك.

* * *

(١) العَبُّ: شُربُ الماءِ دَفعةً واحدةً مِن غيرِ تَنفُّسٍ، انظر: «تاج العروس» للزبيدي: ٣/ ٣٠٠.

الدَّرسُ الحاديَ عَشَرَ

في آدابِ العبادةِ وآدابِ المَساجدِ

يا بُنَيَّ! إيَّاكَ والتَّفريطَ في عبادةِ ربِّكَ؛ فإنَّه يقولُ في كتابِه العزيزِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

يا بُنَيَّ! كُن حريصًا على أداءِ الصَّلاةِ المفروضةِ في وَقتِها معَ الجماعةِ، فإذا اقترَبَ الوقتُ بادِر إلى الوُضوءِ، ولا تُزاحِم أحدًا في طريقِكَ، ولا تُسرِف في استعمالِ الماءِ، فإذا دخَلَ الوقتُ وأذَّنَ المُؤذِّنُ فاستقبِلِ القِبلةَ، وصلِّ السُّنَّةَ القَبليَّةَ، واجلِس بسكينةٍ ووَقارٍ حتَّى تُقامَ الصَّلاةُ، فَصَلِّ معَ الجماعةِ بخُشوعٍ وخُضوعٍ، واعلَم أنَّك في حالِ الصَّلاةِ تُناجي ربَّك وأنتَ واقفٌ بينَ يَدَيهِ[1]، فإيَّاك وهواجسَ الشَّيطانِ، وإيَّاكَ والتَّضاحُكَ في حضرةِ مَولاكَ، وإيَّاكَ واشتغالَ القلبِ بغيرِ مُناجاةِ الرَّحمنِ.

---

(١) روى الحاكم [في «المستدرك»: ١/ ٢٣٥، وقال: «حديث صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن أحدكم إذا قام يصلي إنما يناجي ربه، فلينظر كيف يناجي».

يا بُنَيَّ! إذا فَرَغتَ مِنَ الصَّلاةِ المفروضةِ، فَصَلِّ السُّنَّةَ البعديَّةَ، وادعُ اللَّهَ بما تَيسَّرَ مِن صالحِ الدَّعَواتِ، واستغفِر ربَّك كثيرًا، واسألهُ الفتحَ؛ فإنَّه هو الفتَّاحُ العليمُ.

يا بُنَيَّ! إنِ استَطعتَ ألَّا تَجلِسَ في المسجدِ إلَّا وأنتَ على وُضوءٍ فَافعَل، فإنَّ المساجدَ بيوتُ اللَّهِ، وليس مِنَ الأدبِ أن تَدخُلَ بيتَ ربِّكَ وأنتَ على غيرِ استعدادٍ لعبادتِه.

يا بُنَيَّ! إنَّ عامَّةَ المسلمين يَنظُرون إلى طلبةِ العِلمِ الشَّريفِ نَظَرَ الاحترامِ، ويَستَعظِمُون كلَّ صغيرةٍ تَقَعُ منهم؛ فإيَّاكَ يا بُنَيَّ أن تُسلِّطَ ألسِنةَ العامَّةِ على نَفسِكَ، لا تَرفَع صَوتَك في المسجدِ، فإنَّ ذلك مِنَ العامِّيِّ قبيحٌ، وهو مِن طلبةِ العِلمِ الشَّريفِ أَقبَحُ وأشدُّ نُكرًا، ولا تُخاصِم أحدًا مِن إخوانِك، ولا تُنازِعهُ، ولا تُضيِّق على مُسلمٍ يُريدُ أن يَتعبَّدَ في بيتِ مولاهُ.

يا بُنَيَّ! إنَّ العامِّيَّ إذا دخَلَ المسجدَ، فالأجدرُ بك وبه أن يَتَعلَّمَ منك الأدبَ والخُشوعَ، لا أن تُسيءَ الأدبَ فَيَتولَّى نُصحَكَ وإرشادَك.

فيا بُنَيَّ! لا تُضيِّع شَرَفَ العِلمِ بإساءةِ الأدبِ في بيوتِ اللَّهِ، ولا تُسلِّط ألسِنةَ العامَّةِ على إخوانِك، وإذا رَأيتَ مِن أحدِ المُصلِّينَ شيئًا تَكرَهُه فَعامِلهُ بالإحسانِ واللُّطفِ، وإذا شِئتَ

أن تُرشِدَه إلى حُكمٍ شرعيٍّ، فلا تُغلِظ عليه القَولَ، ولا تُنفِّرهُ مِنَ التَّفقُّهِ في الدِّينِ، ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

* * *

الدَّرسُ الثَّانِيَ عَشَرَ

في فضيلةِ الصِّدقِ

يا بُنَيَّ! احرِص على أن تكونَ صادقًا في كلِّ ما تُحدِّثُ به غيرَك حِرصَكَ على نَفسِكَ ومالِكَ؛ فإنَّ الكَذِبَ شرُّ النَّقائصِ والمَعايِبِ، واحذَر يا بُنَيَّ أن تَشتَهِرَ بينَ إخوانِك وأساتِذَتِكَ بالكَذِبِ، فلا يُصدِّقَكَ أحدٌ فيما تقولُ وإن كان حقًّا.

يا بُنَيَّ! إذا فَعَلتَ أمرًا تَستحِقُّ عليه عقوبةً مِن أُستاذِكَ فلا تَكذِب عليه إذا سألَك، ولا تُحاوِل إلصاقَ الذَّنبِ بأحدٍ مِن إخوانِك، فربَّما قامَ البُرهانُ على كَذِبِكَ فتَستَحِقَّ العقوبةَ مُضاعَفةً؛ عقوبةَ الذَّنبِ، وعقوبةَ الكَذِبِ، وهيهاتَ أن تُنجِّيَكَ هذه العقوبةُ مِن عقوبةِ ربِّكَ الَّذي يَعلَمُ ما تُكنُّهُ في صدرِكَ.

يا بُنَيَّ! إنَّ اللَّهَ تعالى قد لَعَنَ الكاذِبينَ في كتابِه العزيزِ، فهل تَرضى أن تكونَ ملعونًا عندَ اللَّه وأنتَ مِن طَلَبةِ العلومِ الدِّينيَّةِ؟!

يا بُنَيَّ! إذا كَذَبتَ مرَّةً ونَجَوتَ حيثُ لا يُوجَدُ شاهدٌ عليك فقلَّما تَنجُو في غيرِها إذا ظَهَرَ كَذبُك بشهادةِ مَن رَآكَ.

يا بُنَيَّ! إذا لم تَخَف مِنَ النَّاسِ إذا كَذَبتَ عليهم، أفلَا تخافُ مِن مَولاكَ الَّذي يَعلَمُ خائنةَ الأعيُنِ وما تُخفي الصُّدورِ؟

يا بُنَيَّ! إذا كَذَبَ المرءُ مرَّةً تَعوَّدَ لسانُه الكَذِبَ، فلا يكادُ يَصدُقُ في حديثٍ ولا في مَقالٍ، فاحرِص كلَّ الحِرصِ على تَحرِّي الصِّدقِ فيما يَجري على لسانِك، وإيَّاك أن تَقَعَ في أُكذوبةٍ ولو كان فيها ذَهابُ نَفسِكَ.

يا بُنَيَّ! هذه وصيَّتي لك، فإن كنتَ مِن أهلِ الصِّدقِ -كما هو شأنُ طَلَبةِ العِلمِ الشَّريفِ- فعاهِدني على ألَّا تَكذِبَ في حديثٍ قطُّ، وقُل: «عليَّ عهدُ اللَّهِ ومِيثاقُه ألَّا أَكذِبَ على أَحَدٍ ما عِشتُ» وستُظهِرُ لنا الأيَّامُ مِقدارَ احتفاظِكَ بهذا العَهدِ الَّذي عاهَدتَ اللَّهَ عليه بينَ يَدَيْ أُستاذِكَ وأمامَ إخوانِكَ.

يا بُنَيَّ! إنَّ بعضَ النَّاسِ ممَّن لا خَلاقَ لهم يَتَّخِذُون الكَذِبَ مِزاحًا فاحذَر أن تَكذِبَ على النَّاسِ، حتَّى إذا سُئِلتَ قُلتَ: إنَّما كنتُ مازِحًا، فلا تَكذِب في جِدٍّ ولا في هَزلٍ، ولا تُعوِّد لِسانَكَ على غيرِ الحقِّ والصِّدقِ.

واعلَم أنَّ الَّذي يُعرَفُ بالصِّدقِ بينَ قومِه وعشيرتِه وإخوانِه يُؤخَذُ قولُه حجَّةً بلا بُرهانٍ، ويكونُ مَوضِعَ الثِّقةِ عندَ العامَّةِ والخاصَّةِ، فإن كنتَ تُحِبُّ أن تكونَ موثوقًا بك فاحرِص على أن تكونَ صادقًا في كلِّ ما تُحدِّثُ به، واللَّهُ يَتولَّى هدايتَك وإرشادَك إلى الصَّوابِ.

الدَّرسُ الثَّالِثَ عَشَرَ

في فَضيلةِ الأمانةِ

يا بُنَيَّ! الأمانةُ مِن أجملِ ما يَتحلَّى به الإنسانُ مِنَ الفضائلِ، وضدُّها الخيانةُ؛ وهي مِن أقبَحِ الرَّذائلِ الَّتي تَشينُ الإنسانَ، وتَحُطُّ مِن قَدرِه.

الأمانةُ يا بُنَيَّ حِليةُ أهلِ الفَضلِ، وزينةُ أهلِ العِلمِ، وهي معَ الصِّدقِ مِن صِفاتِ الرُّسُلِ عليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ.

فيا بُنَيَّ كُن أمينًا، ولا تَخُن أحدًا في عِرضٍ، ولا في مالٍ، ولا في غيرِهما، إذا ائتَمَنَكَ أحدُ إخوانِك على مالِه فلا تَخُنهُ، ورُدَّهُ إليه بمُجرَّدِ طلبِه، وإذا ائتَمَنَكَ على سِرِّه فلا تَخُنهُ، ولا تُفشِهِ إلى أصدَقِ صديقٍ لك، وأعزِّ عزيزٍ عندَك.

يا بُنَيَّ! إنَّ لك إخوانًا يُشارِكُونك في المَسكَنِ، ولهم أمتعةٌ تركوها في مَسكَنِهم اتِّكالًا على أمانتِكَ، فلا تَمدُد يَدَك إلى شيءٍ مِن ذلك في غَيبَتِهم، ولا تُمكِّن أحدًا مِن قُربانِها إذا كُنتَ حاضرًا وهم غائبون.

يا بُنَيَّ! احذَر أن تكونَ مُتَّهَمًا بين إخوانِكَ بالخيانةِ، فكلَّما

ضاعَ منهم شيءٌ اتَّهَمُوك به، ونَسَبُوا إليك سَرِقَتَه، وإن كنتَ بريئًا.

يا بُنَيَّ! كُن أمينًا في كلِّ شيءٍ، وفي كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، وإيَّاك أن تُحدِّثَ نفسَك بالخيانةِ في عظيمٍ أو حقيرٍ، فلا تَفتَح محفَظةَ أخيك، ولا صُندُوقَ أمتِعَتِهِ في غَيبتِه لمُجرَّدِ الاطِّلاعِ على ما فيهما، فإنَّ ذلك مِنَ الخيانةِ، ولا تَتَجسَّس على إخوانِكَ، فإنَّ ذلك مِنَ الخيانةِ، ولا تُصغِ بأُذُنِكَ إلى اثنَينِ يَتَسارَّانِ؛ فإنَّ ذلك مِنَ الخيانةِ، ولا تَطَّلِع على خطابٍ باسمِ غَيرِكَ، فإنَّ ذلك مِنَ الخيانةِ.

يا بُنَيَّ! إيَّاك والمِزاحَ بالخيانةِ، فلا تَختَلِس مِن أحدِ إخوانِكَ شيئًا على سبيلِ المِزاحِ لِتَرُدَّهُ إليه إذا تَفقَّدَه؛ فإنَّ ذلك يدعو إلى سُوءِ الظَّنِّ بك، واتِّهامِكَ بما أنتَ منه بريءٌ، وربَّما رَسَخَ في ذِهنِ البعضِ أنَّك مِن أهلِ الرِّيبةِ، وهَيهاتَ أن تَنزِعَ هذا الظَّنَّ مِن قلوبِهم.

يا بُنَيَّ! لا تَخُن نفسَك، ولا تَخُن أحدًا مِنَ النَّاسِ، إنَّ مِن خيانتِكَ لِنَفسِكَ، أن يَسألَكَ الأستاذُ لِيَمتَحِنَك، فتَنظُرَ في الكتابِ اختلاسًا ثمَّ تُجيبَه، كأنَّك عالمٌ بما سُئِلتَ عنه، ومِن خيانتِك لِنَفسِكَ أن تَجلِسَ مَجلِسَ الامتحانِ، فإذا عَجَزتَ

عنِ الجوابِ، اختَلَستَ مُسوَّدةَ أخيكَ لِتَكتُبَ منها، أو سألتَه همسًا لِيُجِيبَك.

هذه يا بُنَيَّ خيانةٌ وجَهالةٌ معًا، وغشٌّ أيضًا، فَلَيتَكَ إذ كنت جاهلًا لم تكُن خائنًا ولا غشَّاشًا؛ فاتَّقِ يا بُنَيَّ الوُقوعَ في مِثلِ هذا، واجتهِد في دَرسِكَ تَتَعلَّمِ العِلمَ، وتَسلَمْ مِنَ الخيانةِ والغشِّ، واللَّهُ يَتولَّى هدايتَك وإرشادَك.

* * *

الدَّرسُ الرَّابِعَ عَشَرَ

في فضيلةِ العِفَّةِ

العفَّةُ يا بُنَيَّ مِن أخلاقِ الأخيارِ، ومن صفاتِ الأبرارِ، فاحمِل نفسَك على التَّخلُّقِ بها، حتَّى تَصيرَ مَلَكةً راسخةً فيك.

مِنَ العفَّةِ أن تكونَ قَنوعًا، لا تَضنَّ بطعامِك وشرابِك على ذَوِي الحاجاتِ، ولا على أحدٍ من إخوانِك.

ومن العفَّةِ ألَّا تَتطلَّعَ إلى ما في أيدي النَّاسِ، فلا تَطمَح نفسُك إلى التَّوسُّعِ في المآكلِ والمشاربِ واللَّذائذِ الفانيةِ.

يا بُنَيَّ! من العفَّةِ أن تُقاوِمَ نفسَك وهَوَاكَ، فلا تَنقادَ لهما إذا حَمَلاكَ على طلبِ شيءٍ مِنَ اللَّذَّاتِ القبيحةِ الَّتي يَتَسارَعُ إليها أهلُ الفسادِ، ويَنهمِكُ في طَلَبِها الأشرارُ والفُجَّارُ.

يا بُنَيَّ! إنَّ الَّذي يَملَأُ بَطنَهُ مِنَ الخُبزِ وَحدَه كالَّذي يَملَؤُها مِنَ اللُّحومِ والفواكهِ والحَلوى، كلاهما لا يستطيعُ أن يُدخِلَ في مَعِدَتِه شيئًا إذا شَبِعَ، ومصيرُ ما يأكُلُه الأغنياءُ والفقراءُ واحدٌ؛ وهو تلك القاذوراتُ.

فيا بُنَيَّ! كُن شريفَ النَّفسِ بعفَّتِكَ، ولا تُدنِّس شرَفَ نفسِكَ

الدَّرسُ الرَّابِعَ عَشَرَ

في فضيلةِ العِفَّةِ

العفَّةُ يا بُنَيَّ مِن أخلاقِ الأخيارِ، ومن صفاتِ الأبرارِ، فاحمِل نفسَك على التَّخلُّقِ بها، حتَّى تَصيرَ مَلَكةً راسخةً فيك.

مِنَ العفَّةِ أن تكونَ قَنوعًا، لا تَضنَّ بطعامِك وشرابِك على ذَوِي الحاجاتِ، ولا على أحدٍ من إخوانِك.

ومن العفَّةِ ألَّا تَتطَلَّعَ إلى ما في أيدي النَّاسِ، فلا تَطمَح نفسُك إلى التَّوسُّعِ في المآكلِ والمشاربِ واللَّذائذِ الفانيةِ.

يا بُنَيَّ! من العفَّةِ أن تُقاوِمَ نفسَك وهَوَاكَ، فلا تَنقادَ لهما إذا حَمَلاكَ على طلبِ شيءٍ مِنَ اللَّذَّاتِ القبيحةِ الَّتي يَتَسارَعُ إليها أهلُ الفسادِ، ويَنهمِكُ في طَلَبِها الأشرارُ والفُجَّارُ.

يا بُنَيَّ! إنَّ الَّذي يَملَأُ بَطنَهُ مِنَ الخُبزِ وَحدَه كالَّذي يَملَؤُها مِنَ اللُّحومِ والفواكهِ والحَلوى، كلاهما لا يستطيعُ أن يُدخِلَ في مَعِدَتِه شيئًا إذا شَبِعَ، ومصيرُ ما يأكُلُه الأغنياءُ والفقراءُ واحدٌ؛ وهو تلك القاذوراتُ.

فيا بُنَيَّ! كُن شريفَ النَّفسِ بعفَّتِكَ، ولا تُدنِّس شرَفَ نفسِكَ

بأكلةٍ تَذهَبُ لذَّتُها بمُجرَّدِ الفراغِ منها، ويَلحَقُك عارُها أينما حَلَلتَ، وحيثُما تَوَجَّهتَ.

يا بُنَيَّ! العِفَّةُ تاجُ مَن لا تاجَ له، فاحتفِظ بتاجِ العِفَّةِ الذي يُكسِبُك الوَقارَ والاحترامَ عندَ الخاصَّةِ والعامَّةِ.

اتَّقِ المَحارِمَ كلَّها، وإذا مَشَيتَ في الطَّريقِ، فلا تَملَأ عينَك مِنَ النِّساءِ، ولا تُكلِّم امرأةً ليست ذاتَ رَحِمٍ مُحرَّمٍ منك، وإيَّاك أن تَخلُوَ بامرأةٍ لا يَحِلُّ لك المُقامُ معَها، وَأْتَمِر بأمرِ اللَّهِ في كتابِه العزيزِ، حيثُ يقولُ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

يا بُنَيَّ! **«إنَّ الشَّيطانَ يَجري مِنِ ابنِ آدمَ مَجرَى الدَّمِ»**(١)، والنِّساءُ حبائلُ الشَّيطانِ، وشَرَكُهُ الَّذي يَصطادُ به ضِعافَ القلوبِ، فإيَّاك يا بُنَيَّ أن يَستَهوِيَكَ الشَّيطانُ بِمَكرِه، فَتَقَعَ في أكبَرِ الخَطايا، وأنكَرِ المُنكَراتِ.

---

(١) رواه الإمام أحمد [١٢٥٩٢] والبخاري [لم يخرجه البخاري من حديث أنس ﷺ، ففي عزو الحديث إليه نظر] ومسلم [٢١٧٤] وأبو داود [٤٧١٩] عن أنس بن مالك، ورواه البخاري [٣٢٨١] ومسلم [٢١٧٥] وأبو داود [٢٤٧٥] وابن ماجه [١٧٧٩] عن صفية [رضي اللَّه عنها].

يا بُنَيَّ! تَذكَّر قولَ اللَّهِ تعالى في كتابِه العزيزِ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

يا بُنَيَّ! وصيَّتي لك أن تَحترِسَ مِن غَوايةِ الشَّيطانِ، ومِنَ الشَّهَواتِ الخبيثةِ، فإنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عليك في خَلوَتِكَ، ومُحاسِبُك على عَمَلِكَ.

يا بُنَيَّ! اقبَل نَصيحتي هذه، واذكُرها كلَّما عَرَضَ لك خاطرُ سُوءٍ مِنَ الخَطَراتِ الشَّهوانيَّةِ، واستعِذ باللَّهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيم، وتَوجَّه إلى اللَّهِ بعزيمةٍ صادقةٍ، وَاسألهُ النَّجاةَ مِن كَيدِ الشَّيطانِ وغُرورِه، واللَّهُ يَتولَّاكَ يا بُنَيَّ بحفظِه ورعايتِه.

* * *

الدَّرسُ الخامسَ عَشَرَ

في المُروءةِ والشَّهامةِ وعِزَّةِ النَّفسِ

يا بُنَيَّ! لا خيرَ في المرءِ إذا كانَ قليلَ المروءةِ، دنيءَ الهِمَّةِ، وَضيعَ النَّفسِ، مُبتذَلًا بين قومِه وعشيرتِه، إذا أُهينَ تَصاغَرَ وتَذلَّل، وإذا احتُقِرَ كان جَبانًا في مَوضعِ الدِّفاعِ عن كرامةِ نفسِه.

أمثالُ هؤلاءِ يا بُنَيَّ ليسوا أهلًا لِأَن يَتَشرَّفوا بالانتسابِ إلى طَلَبةِ العلومِ الدِّينيَّةِ، ولا أن يكونوا مِن حَمَلةِ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ.

فيا بُنَيَّ! احتفِظ بمُروءتِكَ، ولا تَضَع نفسَك في غيرِ مَوضِعِها، احترِس مِن مُخالَطةِ السَّفِلةِ، ومِن مُعاشرةِ اللِّئامِ، وتَرَفَّع عنِ الدَّنايا، ولا تكُن عبدًا لِبَطنِكَ، ولا عبدًا لِشَهَواتِكَ.

يا بُنَيَّ! الفقرُ مِنَ المالِ لا يُعَدُّ في عيوبِ الرِّجالِ، يُعابُ المرءُ بقلَّةِ مُروءتِه، لا بقلَّةِ ثَروتِه، ويُحمَدُ على جميلِ فِعالِه، لا على كثرةِ مالِه.

مِنَ المروءةِ أن تَصُونَ ماءَ وَجهِكَ عن ذُلِّ السُّؤالِ، راضيًا بعيشِ الكفافِ، وبِحَسبِكَ لُقَيماتٌ يُقِمنَ صُلبَكَ[1]، فلا تَجعَل

---

(١) في الحديث الشريف عن النبي ﷺ قال: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرًّا =

لأحدٍ عليك مِنَّةً في الحصولِ على شيءٍ مِن لَذَّاتِكَ الفانيةِ.

ومِنَ المروءةِ أن تَنظُرَ إلى ذَوي الحاجاتِ مِن إخوانِك نظرةَ الاحترامِ ونظرةَ الإشفاقِ.

ومِنَ المروءةِ إذا ساعَدتَ أَحَدَ إخوانِك بشيءٍ مِن مالِكَ ألَّا تَجعَلَ ذلك وسيلةً إلى إذلالِه واحتقارِه.

يا بُنَيَّ! مِنَ الشَّهامةِ أن تَعفُوَ عمَّن ظَلَمَكَ وأنت قادرٌ على الانتقامِ منه، وتُحسِنَ إلى مَن أساءَ إليك وأنتَ أقوى منه على الإساءةِ، ومِنَ الشَّهامةِ أن تقولَ كلمةَ الحقِّ ولو على نَفسِكَ، ومِنَ الشَّهامَةِ ألَّا تَضُرَّ أخاكَ لتَنفَعَ نَفسَكَ، ومِن الشَّهامَةِ أن تُحافِظَ على كرامتِكَ وإن كنتَ فقيرًا مُعدِمًا.

يا بُنَيَّ! مَن لم يكُن عَزيزًا في نفسِه لا يستفيدُ بالمالِ ولا بغيرِه عِزًّا، عِزُّ النَّفسِ أفضَلُ وأشرفُ مِنَ العِزِّ بالمالِ، فمِن عِزَّةِ النَّفسِ أن تَتَجمَّلَ بينَ النَّاسِ وإن كنتَ فقيرًا، ومِن عِزَّةِ

= من بطنه، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه». رواه الإمام أحمد [١٧١٨٦]، والترمذي [٢٣٨٠، وقال: «حسن صحيح»]، وابن ماجه [٣٣٤٩]، والحاكم [٧٣٣٥، ووافقه الذهبي] من حديث المقدام بن مَعْدِيكَرِبَ.

النَّفسِ ألَّا تَبُوحَ باحتياجِكَ لأحدٍ مهما كانت مَنزِلَتُه عندَك، ومِن عِزَّةِ النَّفسِ أن تَصبِرَ على مَضَضِ العيشِ صبرَ الكرامِ، وألَّا تَرفَعَ حاجتَك إلى غيرِ مَولاكَ.

يا بُنَيَّ! مِن عِزَّةِ النَّفسِ ومِنَ المُروءةِ والشَّهامةِ ألَّا تَحتَمِلَ الضَّيمَ والإذلالَ لِنَفسِكَ، ولا لأحدٍ مِن إخوانِك، ولا لأحدٍ مِن أبناءِ مِلَّتِكَ، ولا لِوَطنِكَ الَّذي مِن طِينتِه خُلِقتَ، وتحت سمائِه تَرَبَّيتَ، قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**المؤمنُ للمُؤمنِ كالبُنيانِ يَشُدُّ بعضُه بعضًا**»[1].

* * *

(١) رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري. [تقدَّم تخريجه].

الدَّرسُ السَّادسَ عَشَرَ

في الغِيبةِ والنَّميمةِ والحِقدِ والحَسَدِ والكِبرِ والغُرورِ

يا بُنَيَّ! مِن الأخلاقِ الذَّميمةِ أن تَذكُرَ أخاكَ في غَيبتِه بما يَكرَهُ أن يَسمَعَه بأُذُنِه.

يا بُنَيَّ! لكلِّ إنسانٍ عيبٌ، فكما لا تُحِبُّ ذِكرَ عيوبِكَ في غَيبتِكَ، يجبُ أن تَصُونَ لسانَك عن عُيوبِ النَّاسِ في غَيبتِهم، فاجتنِب الغِيبةَ يا بُنَيَّ، واجتنِب نَظيرَتَها في الخُبثِ، وهي النَّميمةُ، فلا تَسْعَ بالفسادِ بينَ النَّاسِ، لا تَقُل لأحدِ إخوانِكَ: إنَّ فلانًا قالَ فيكَ كذا وكذا، وفلانًا رَماك بكذا.

يا بُنَيَّ! الغِيبةُ والنَّميمةُ مِن أخلاقِ الأدنياءِ وأخلاقِ اللِّئامِ، لا مِن أخلاقِ طُلَّابِ العلومِ الدِّينيَّةِ، فلا تُدنِّس نفسَك بهذه الأخلاقِ الذَّميمةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

يا بُنَيَّ! لا تَحسُد أخاك على نِعمةٍ أنعَمَ اللَّهُ بها عليه دُونَك، فلو شاءَ ربُّك لَأعطاكَ كما أعطاهُ.

يا بُنَيَّ! لا يستفيدُ الحَسُودُ مِن حَسَدِه إلَّا العداوةَ والبغضاءَ، إنَّك إذا حَسَدتَ أخاك أبغَضَك وعاداك، وأبغَضَك لهذا الخُلُقِ الذَّميمِ كلُّ مَن عَرَفَكَ، فَدَعِ الحَسَدَ يا بُنَيَّ، وَدَعِ الحِقدَ على إخوانِك وعلى النَّاسِ كافَّةً، لا تُضمِر لأحدٍ سُوءًا، وإذا أساءَ إليك إنسانٌ ثمَّ اعتَذَرَ فقابِل مَعذِرَتَه بالقَبولِ، وامحُ مِن قَلبِكَ حبَّ الانتقامِ منه.

يا بُنَيَّ! كُن سليمَ الصَّدرِ مِن حبِّ الأذى يَتودَّدْ إليك النَّاسُ ويُحبُّوك.

يا بُنَيَّ! الحقدُ والحسدُ خُلُقانِ خبيثانِ لا يَضُرَّانِ إلَّا صاحبَهما؛ فلا الحَسَدُ يَنقُلُ إليك نِعمةَ مَن حَسَدتَه، ولا الحقدُ بِضَارٍّ مَن أضمَرتَ له السُّوءَ إلَّا أن يشاءَ اللَّهُ، ولكنَّك إذا كنتَ حَسُودًا حَقُودًا، يكادُ يَلتَهِبُ قلبُك مِنَ الغَيظِ لَيلَك ونَهارَك.

يا بُنَيَّ! إذا أنعَمَ اللَّهُ عليك بنِعمةٍ فاشكُرهُ، ولا تَتكبَّر على خَلقِه، فإنَّ الَّذي وَهَبَكَ هذه النِّعمةَ قادرٌ على سَلبِها منك، وإنَّ الَّذي حرَمَ غيرَك قادرٌ على إعطائِه ضِعفَ ما أعطاك، فلا تَتعرَّض لغضبِ اللَّهِ تعالى بالتَّكبُّرِ على خَلقِه، فإنَّ اللَّهَ لا يحبُّ المُتكبِّرينَ.

يا بُنَيَّ! لا يَحمِلنَّك الغُرورُ بما أعطاك اللَّهُ على نِسيانِ عبوديَّتِكَ لمولاكَ، وأنَّك واحدٌ مِن مخلوقاتِه، لا فضلَ لك على أحدٍ منهم عندَ اللَّهِ إلَّا بالتَّقوى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

* * *

الدَّرسُ السَّابعَ عَشَرَ

في التَّوبةِ والخوفِ والرَّجاءِ والصَّبرِ معَ الشُّكرِ

يا بُنَيَّ! العصمةُ مِنَ الذُّنوبِ والخطايا ليست إلَّا للأنبياءِ عليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ، فإذا قُدِّرَ عليك الوقوعُ في خطيئةٍ مِنَ الخطايا فبادِر بالتَّوبةِ إلى اللَّهِ تعالى، واستغفِر ربَّك إنَّه كانَ غفَّارًا.

يا بُنَيَّ! التَّوبةُ مِنَ الذَّنبِ ليست مُجرَّدَ كَلِمةٍ تقولُها بلسانِك، ولكنَّ التَّوبةَ على الحقيقةِ اعترافُك بينَ يَدَي مولاك بالخطيئةِ الَّتي وَقَعَت منك، واعترافُك بأنَّك مُذنِبٌ مُستحِقٌّ للعقوبةِ الَّتي قدَّرَها اللَّهُ لهذا الذَّنبِ، وأن تَشعُرَ بالحُزنِ والنَّدمِ على ما فَرَطَ منك، وأن تُعاهِدَ اللَّهَ على ألَّا تَعُودَ لمِثلِه أبدًا، ثمَّ ابتهِل إلى اللَّهِ أن يَصفَحَ عنك فيما سَلَفَ، فإن شاءَ عفا عنك، وإن شاءَ عاقَبَكَ.

هذه يا بُنَيَّ حقيقةُ التَّوبةِ والاستغفارِ، لا أن تقولَ بلسانِكَ: تُبتُ إلى اللَّهِ، وأنتَ مُصِرٌّ على مُخالَفةِ مولاك، إنَّ التَّوبةَ باللِّسانِ بدونِ ندمٍ ولا إقلاعٍ عنِ الذَّنبِ خطيئةٌ أُخرى تَستحِقُّ عليها العقوبةَ.

يا بُنَيَّ! انظُر إلى نَفسِكَ معَ أبيك أو أُستاذِكَ إذا أَمَرَكَ بالمُواظَبةِ على الدَّرسِ فأهمَلتَ، وأرادَ عُقوبتَك فقُلتَ: إنِّي

تائبٌ، هل تَصِحُّ توبتُك وأنتَ لاهٍ عن دُروسِكَ؟ أليسَت هذه التَّوبةُ مِن الأكاذيبِ الَّتي تَستحِقُّ عليها عقوبةً أخرى؟

يا بُنَيَّ! الخوفُ مِنَ اللَّهِ يَحُولُ بينَ المرءِ وذَنبِه، فمَنِ اشتَدَّ خوفُه مِن ربِّه قلَّما يَقتَرِفُ خطيئةً مِنَ الخطايا.

فَخَفِ اللَّهَ يا بُنَيَّ خوفًا يَحُولُ بينَك وبينَ مُخالَفةِ أمرِه، ولا تَيأَس مِن رَوحِ اللَّهِ إذا فَرَطَت منك خطيئةٌ، وابتهِل إلى اللَّهِ في سِرِّكَ وجَهرِكَ، واسألهُ العفوَ والمغفرةَ، إنَّ ربَّك غفورٌ رحيمٌ.

يا بُنَيَّ! إذا أصابَتكَ مصيبةٌ في نفسِك أو مالِكَ، أو في عزيزٍ عندك فاصبِر، واحتَسِب أجرَك عندَ اللَّهِ، وقابِل قضاءَ اللَّهِ وقَدَرَه بالرِّضا والقَبولِ، واشكُر مَولاكَ على مَبلَغِ لُطفِه بك وإحسانِه إليك؛ إذ لم يُضاعِفِ المصيبةَ عليك، واسألهُ اللُّطفَ في القضاءِ والقَدَرِ، وقُلِ: اللهمَّ إنِّي لا أَسألُكَ ردَّ القضاءِ، ولكن أَسألُكَ اللُّطفَ فيه.

يا بُنَيَّ! لوِ اطَّلَعتَ على الغَيبِ لاخترتَ صُنعَ اللَّهِ بك، فما مِن مُصيبةٍ إلَّا وعندَ اللَّهِ أَعظَمُ منها، فلا تُنازِعِ الأقدارَ، ولا تَعترِض على مولاكَ؛ فإنَّه الفعَّالُ لِما يُريدُ، ولا رادَّ لقضائِه، ولا مُعقِّبَ لحُكمِه، يَفعَلُ ما يشاءُ، وهو الحكيمُ الخبيرُ.

* * *

الدَّرسُ الثَّامِنَ عَشَرَ
في فضيلةِ العملِ والكَسبِ معَ التَّوكُّلِ والزُّهدِ

يا بُنَيَّ! تَعلَّم العِلمَ لِتَعمَلَ به في نفسِكَ، ولِتُعلِّمَه للنَّاسِ، وتَحمِلَهم على العملِ به، وتَعَلَّم العِلمَ لِتُحسِّنَ بعِلمِكَ تدبيرَ حياتِكَ، وطريقَ مَعاشِكَ ومَعادِكَ، فما تَعَلَّمتَ لِيَكونَ العِلمُ غُلًّا في عُنُقِكَ، ولا قَيدًا في رِجلِكَ، يَمنَعُكَ السَّعيَ؛ ويَحُولُ بينَك وبينَ أسبابِ مَعاشِكَ.

يا بُنَيَّ! العالِمُ أولى أن يكونَ قُدوةً للنَّاسِ في اكتسابِ المالِ مِن وُجوهِ الحِلِّ، لإنفاقِه في وُجوهِ البِرِّ، هذا هو العالِمُ الَّذي يُشرِقُ نورُ عِلمِه على العامَّةِ، فيَهتَدُون بهَديِه إذا باعَ، وإذا اشترى، وإذا استَدانَ، وإذا زَرَعَ، وإذا اتَّجَرَ، وإذا أنفَقَ.

يا بُنَيَّ! لا عَيبَ على طالبِ العِلمِ إذا عَمِلَ في مزرعتِه، أو مزرعةِ أبيه بنفسِه، إنَّما العيبُ كلُّ العيبِ أن يكونَ كَلًّا على النَّاسِ، يَترقَّبُ الصَّدقاتِ، وينتظرُ فَضلةَ أصحابِ المروءاتِ.

يا بُنَيَّ! كان النَّبيُّ ﷺ يَرعى الغَنَمَ قبلَ البِعثةِ، ثمَّ كان يَتَّجِرُ حتَّى بُعِثَ، وما زالَ كذلك حتَّى كان رِزقُه تحتَ ظِلِّ رُمحِه[1]،

(١) روى الإمام أحمد والبخاري وغيرهما عن أبي هريرة عن النبي ﷺ =

وكان أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ تاجرًا حتَّى استُخلِفَ(١)، وكذلك

= قال: «ما بعث اللَّه نبيًّا إلا رعى الغنم»، فقال أصحابه: وأنت؟ قال: «نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة».

وأما التجارة: فقد ثبت في السيرة والأحاديث الصحيحة أنه عليه الصلاة والسلام كان يتَّجر لخديجة في مالها قبل البعثة، وروى الإمام أحمد عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «بعثت بالسيف بين يدي الساعة، حتى يعبد اللَّه وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي».

[أما حديث رعي الغنم؛ فأخرجه البخاري (٢٢٦٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، ولم نقف عليه من حديثه في «مسند أحمد»، وله شاهد عن أبي سعيد الخدري، وعن جابر ﷺ أخرجهما أحمد في «المسند» (١١٩١٨، ١٤٤٩٧).

وأما تجارته بمال السيدة خديجة ﷺ، فذلك مشهور معروف في السيرة النبوية، انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام: ١/ ١٨٧، و«تاريخ الرسل والملوك» للطبري: ٢/ ٢٨٠، و«دلائل النبوة» لأبي نعيم الأصبهاني (١١٠)، و«دلائل النبوة» للبيهقي: ٢/ ٦٦، و«الروض الأنف» للسهيلي: ٢/ ٢٣١.

وأما حديث: «بعثت بالسيف بين يدي الساعة...» فأخرجه أحمد في «المسند» (٥١١٤)، وقال العراقي في «المغني عن حمل الأسفار»: ١/ ٤٢٠: «إسناده صحيح»].

(١) [أخرج ابن سعد في «الطبقات الكبير»: ٣/ ١٦٨، عن عطاء بن السائب قال: لما استُخلِف أبو بكر أصبح غاديًا إلى السوق، =

كان أصحابُ رسولِ اللَّهِ ﷺ، ومَن تَبِعَهم مِنَ السَّلفِ الصَّالحِ، فما مَنَعَهُمُ العِلمُ عن مُزاحَمةِ النَّاسِ في كَسبِ الحلالِ، بل كانوا قدوةً حسنةً في وجوهِ الكسبِ.

يا بُنَيَّ! إنَّك ستَطَّلِعُ على كثيرٍ مِنَ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ في البَيعِ والرَّهنِ والإجارةِ والمُضارَبةِ والمُزارَعةِ، ونحوِها؛ فاعمَل بما تَعلَمُ، وعلِّمِ النَّاسَ يُضاعِفِ اللَّهُ لك الأجرَ على عِلمِكَ وعَمَلِكَ.

إيَّاكَ يا بُنَيَّ أن تَظُنَّ -كما يَظُنُّ بعضُ الأغبياءِ- أنَّ التَّوكُّلَ على اللَّهِ هو تَركُ العملِ، والاستسلامُ للأقدارِ، إنَّ الزَّارعَ الَّذي يَحرُثُ أرضَهُ ويَعمَلُ فيها بنفسِه ليلًا ونهارًا مِن أفضَلِ

= وعلى رقبته أثواب يتَّجِر بها، فلقيه عمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح. فقالا له: أين تريد يا خليفة رسول اللَّه؟ قال: السوق، قالا: تصنع ماذا! وقد ولِّيت أمر المسلمين؟ قال: فمن أين أُطعِم عيالي؟ قالا له: انطلق حتى نفرض لك شيئًا، فانطلق معهما، ففرضوا له كل يوم شطر شاة.

وأخرج أيضًا: ٣/ ١٦٩، عن ميمون بن مهران قال: لمَّا استُخلِف أبو بكر جَعَلُوا له ألفين، فقال: زيدوني؛ فإن لي عيالًا، وقد شغلتموني عن التجارة. وصحح ابن حجر إسناده إلى ميمون، انظر: «التلخيص الحبير»: ٦/ ٣١٩٩].

المُتوكِّلِينَ على اللَّهِ -إذا حَسُنَت نيَّتُه، فإنَّه وَضَعَ الحبَّةَ في بطنِ الأرضِ، وأَحسَنَ عَمَلَه، وفوَّضَ الأمرَ إلى ربِّه، فإن شاءَ أنبَتَت سَبعَ سنابلَ في كلِّ سُنبُلةٍ مئةُ حبَّةٍ، وإن شاءَ أماتَها فلم تُنبِت شيئًا.

يا بُنَيَّ! ليس الزُّهدُ تَركَ العملِ، ولكنَّ الزُّهدَ أن يَخرُجَ حُبُّ الدُّنيا مِن قلبِكَ، وإذا اكتسَبتَ أكثَرَ مِن حاجتِكَ- واسَيتَ الضُّعفاءَ، وتَصَدَّقتَ على الفقراءِ، ولم يَدفَعكَ الحِرصُ وحبُّ الاستكثارِ إلى طَلَبِ الدُّنيا مِن غيرِ الوُجوهِ الَّتي أَحَلَّها اللَّهُ لعبادِه.

فيا بُنَيَّ: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾ [القصص: ٧٧].

* * *

الدَّرسُ التَّاسِعَ عَشَرَ

في إخلاصِ النِّيَّةِ للَّهِ تعالى في جميعِ الأعمالِ

يا بُنَيَّ: «**إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نَوَى**»[1] إنَّ الَّذي يَترُكُ الأكلَ والشُّربَ مِن طُلوعِ الفجرِ إلى غروبِ الشَّمسِ بنيَّةِ الصَّومِ كالَّذي يَترُكُهُما لأنَّه لم يَجِدهُما، لكنَّ الأوَّلَ له أجرُ الصَّائمِ، والثَّانيَ ليس له ذلك الأجرُ؛ فَأخلِصِ النِّيَّةَ لمولاك -يا بُنَيَّ- في جميعِ أعمالِكَ.

تَفقَّه في الدِّينِ بنيَّةِ الوُقوفِ عندَ حدودِ اللَّهِ فيما أَحَلَّ وحرَّمَ؛ فما كان حرامًا اجتَنَبتَهُ، لأنَّ اللَّهَ نهاكَ عنه، وما كان واجبًا فَعَلتَه، لأنَّ اللَّهَ أَمَرَكَ به.

وتَعلَّم «علومَ اللُّغةِ العربيَّةِ» لِتَقوى على إدراكِ الحِكَمِ والمواعظِ الَّتي استَودَعَها اللَّهُ تعالى في كتابِه الكريمِ، وأجراها على لسانِ رَسُولِهِ ﷺ فيما صحَّت روايتُه عنه.

وتَعلَّمِ «العلومَ العقليَّةَ» لِتَتَقوَّى بها حُجَّتُكَ، وتَستضيءَ بصيرتُك في نُصرةِ دِينِ اللَّهِ، وإرشادِ الخلقِ إلى سبيلِ الهُدى.

---

(١) رواه البخاري [١] ومسلم [١٩٠٧]، وغيرهما عن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ.

يا بُنَيَّ! اجعَل أعمالَكَ كلَّها لخدمةِ مولاكَ الَّذي خَلَقَكَ وسوَّاكَ، لا تَطلُب بها غيرَ وَجهِ ربِّكَ.

اترُكِ الشَّرَّ؛ لأنَّ اللَّهَ تعالى أَمَرَكَ بتَركِه، وافعَلِ الخيرَ؛ لأنَّ اللَّهَ تعالى أَمَرَكَ بفِعلِه.

الزَمِ الأدبَ معَ إخوانِكَ؛ لأنَّ اللَّهَ تعالى أَمَرَك به، لا لأنَّ مخلوقًا مِثلَكَ يُعاقِبُكَ على تَركِه.

لا تَتَعدَّ على حقوقِ العبادِ؛ لأنَّ اللَّهَ تعالى نهاكَ عنِ العُدوانِ، لا لأنَّك إذا تَعَدَّيتَ على الحقوقِ تُحاكَمُ، ويُقضى عليك بردِّها لأهلِها.

لا تَخُن أحدًا مِن خَلقِ اللَّهِ؛ لأنَّ اللَّهَ تعالى نَهاكَ عنِ الخيانةِ، لا خوفًا مِن عقوبةِ مخلوقٍ مِثلِكَ.

أَطِع أباك وأُمَّكَ؛ لأنَّ اللَّهَ تعالى أَمَرَكَ بطاعتِهما، لا خَشيَةَ أن تَنقَطِعَ النَّفَقةُ عنك إذا عَصَيتَهما.

وأَطِعِ الحُكَّامَ وأولياءَ الأمورِ؛ لأنَّ اللَّهَ تعالى أَمَرَكَ بطاعتِهم، لا طَمَعًا في عُلُوِّ المَنزِلةِ عندَهم، ولا خوفًا مِن سَطوَتِهم وبَطشِهِم.

أَشفِق على الضُّعفاءِ والمَرضى واليتامى والمساكينِ؛ لأنَّ

اللَّهَ تعالى أَمَرَكَ بالإشفاقِ عليهم، لا لِيَقولَ النَّاسُ عنك: إنَّك مِنَ المُحسِنِينَ.

احذَر أعداءَك وأعداءَ قَومِكَ؛ لأنَّ اللَّه تعالى أَمَرَكَ بالحَذَرِ منهم، لا حبًّا في الانتقامِ ممَّن يُعادِيكَ.

اجتهِد أن تكونَ أعمالُك كلُّها في خدمةِ مِلَّتِكَ وأبناءِ وَطَنِكَ؛ طمعًا في رضوانِ اللَّهِ، وطلبًا للأجرِ عندَ ربِّكَ، لا رغبةً في الشُّهرةِ وجمعِ الدُّنيا.

وفَّقَك اللَّهُ وأرشَدَكَ إلى ما فيه صلاحُ دُنياكَ وآخِرَتِكَ.

* * *

الدَّرسُ العِشرونَ

في خاتِمةِ الوَصايا

يا بُنَيَّ! أَكثِر مِن مُدارَسةِ القرآنِ، واحفَظ آياتِه الشَّريفةَ عن ظَهرِ قلبِكَ، وإذا قرأتَ القرآنَ فلا تَقرَأْهُ وأنت غافلٌ عن معناهُ، وإذا أَشكَلَ عليك فَهمُ آيةٍ فارجِع إلى كُتُبِ التَّفسيرِ، أو إلى أحدِ العلماءِ لتَعلَمَ مَعناها.

يا بُنَيَّ! شتَّانَ بينَ مَن يَقرَأُ ولا يَفهَمُ مَعنَى ما يَقرَؤُه، وبينَ مَن يَقرَأُ ومَعَاني القرآنِ الكريمِ حاضرةٌ لَدَيهِ؛ الأوَّلُ كالأعمى يَمشي في الطَّريقِ لا يُبصِرُ منها شيئًا، والثَّاني كصاحبِ البصرِ يَتَّقي ببصرِه مَواقِعَ الزَّلَلِ.

يا بُنَيَّ! رُبَّ قارئٍ للقرآنِ والقرآنُ يَلعَنُه[1]، فما أَنزَلَ اللَّهُ الكتابَ العزيزَ لمُجرَّدِ التِّلاوةِ بلا فَهمٍ، ولا لتِلاوتِه معَ فَهمِ معناهُ فقط، ولكنْ أَنزَلَه لامتثالِ ما أَمَرَ به، واجتنابِ ما نَهَى

(١) [أورده حجة الإسلام في «إحياء علوم الدين»: ٢/ ٢٦٦، عن أنس ﷺ قال: رُبَّ تَالٍ للقُرآنِ والقرآنُ يلعنُهُ. ويشهد له قول النبي ﷺ: «القرآنُ حجةٌ لك، أو عليك» أخرجه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ].

عنه، ولِلتَّخلُّقِ بما تَضَمَّنتهُ آياتُه الشَّريفةُ مِنَ الأخلاقِ الكريمةِ؛ فَاقرَأِ القرآنَ بقَصدِ امتثالِ أمرِه، واجتنابِ نَهيِه، والتَّخلُّقِ بأخلاقِه.

يا بُنَيَّ! حاسِب نفسَكَ على ما فَعَلتَ قبلَ أن يُحاسِبَكَ مولاك، فإذا خَلَوتَ بنفسِكَ عندَ النَّومِ، فاذكُر ما صَنَعتَ في يَومِكَ ولَيلَتِكَ، فإن رَأَيتَ خيرًا فاحمَدِ اللَّهَ على تَوفيقِه، وإن رأيتَ شرًّا فَافزَع إلى التَّوبةِ والنَّدَم، وعاهِد مولاكَ على ألَّا تَعُودَ، واستَغفِر ربَّكَ كثيرًا، لعلَّ اللَّهَ يَقبَلُ تَوبَتَكَ، ويَغفِرُ لك ما تَقدَّم مِن ذَنبِكَ.

يا بُنَيَّ! أَكثِر مِن الابتهالِ إلى اللَّهِ، والدَّعَواتِ الصَّالحاتِ لِنَفسِكَ ولأَبَويكَ، ولإخوانِكَ المؤمنين، وقُل: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٠، ٤١].

اللهمَّ برحمتِكَ عُمَّنا، واكفِنا شرَّ ما أهمَّنا، وعلى الإيمانِ الكاملِ والكتابِ والسُّنَّةِ تَوَفَّنا وأنتَ راضٍ عنَّا، اغفِر اللهمَّ لنا ولوالدِينا، ولمشايخِنا ولإخوانِنا في اللَّهِ تعالى أحياءً وأمواتًا، ولكافَّةِ المسلمين أجمعين.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: ١٨٠- ١٨٢].

وكان الفراغُ من تحريرِه في ذي القَعدةِ الحرامِ سنةَ (١٣٢٦) هجريَّةً على يَدِ أفقَرِ العبادِ، وأحوَجِهم إلى رحمةِ مولاه محمَّد شاكر؛ شيخِ علماءِ الإسكندريَّةِ، والحمدُ للَّهِ أوَّلًا وآخِرًا.

* * *